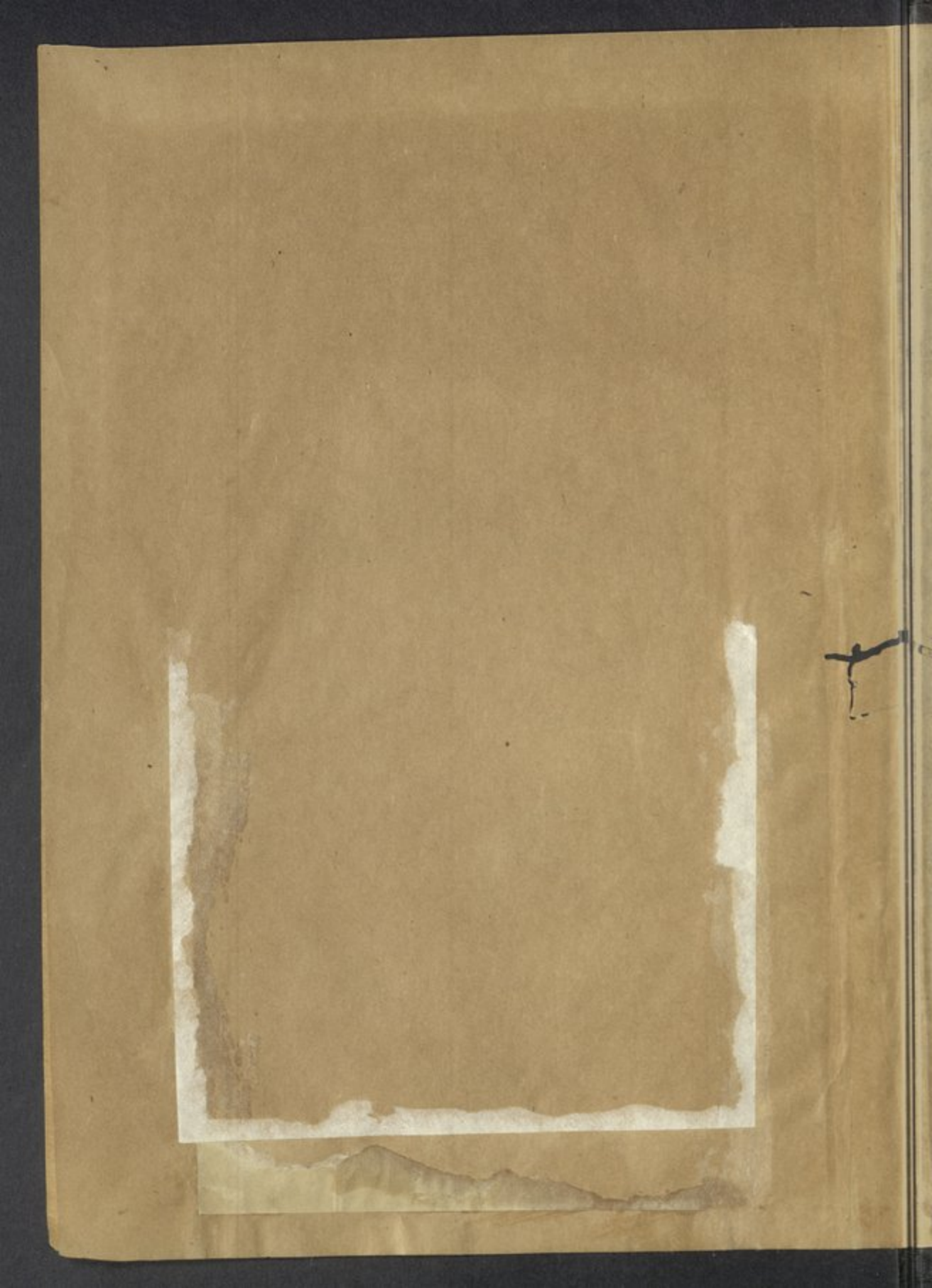

ابراهيم الأبياري

808.1
A161rA
c.1

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARY

رسالة الشاعر

Cairo, June, 52

المكتبة العربية
تطلبها
الشيخ وسلم أوغا السباني
شارع الفجالة
بمصر

79044

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

١٩٢٩

رسالة الشاعر

تقدمة

الحياة أهداف ، والفلاح معقود بناصية ذوي الجِدّ ، ومع الجَنَف عن الجادة وخبط العشواء ، لا إلى غاية ، الانحلالُ والهَوَن .

لَقِيَ ذلك الناهضون بأعباء الأمم ، فتبينوا مقاصدهم وعبَّدوا السبل والمنافذ إليها . فانساب الناس فيها انسياب صغار الجداول ، لا تلبث أن تلتقي عن كثب في مجرى واحد .

لم يخص الداعون ناحية دون ناحية ولا فعلاً دون قول ، ولا جدًّا دون لهو ، إلاّ جعلوا منه سبيلهم إلى منشود غايتهم .

هذا مع الوضع المرسوم ، والقصد المُرسَى . أما مع التوزع والبلبلة ، وفقدان المعالم والغايات ، فالأمور الى شتات .

وتمتاز أمةً عن أمة ، أُولاها قد استوت على قدميها ، والثانية لما تحسّ مكان القدمين من جسمها ، بقُرب المَيزة من أهدافها ، وجمعها آحادها على مُرادها .

واذا رأيت أنّا لازلنا كابين على اليدين والفم ، فمرجعُ الأمر في ذلك إلى أنّا لمّا نتبين إلى اليوم أغراضنا في جلاء ووضوح ، أو لأنّا أضلّتنا السُّبل الى ما نريد .

*

تحمل الألسنةُ في ذلك التوجيه الشيء الكثير ، بما يصدُر عنها من قول ، يكون نثراً ويكون شعراً ، تتلقاه الآذان ، وتَعيه القلوب ، فتنقاد له وتهتدي بهديه .

والنثر والشعر ، وإن صدرا للقول وجماله ، وعبرا لترويح النفوس ونزهة الخواطر ، أو لغير هذا وذاك من لسانات الناثرين والشاعرين وأوطارهم ـ وأكاد أقول : لحياة الأدباء خاصة ـ فهما لذلك الغرض الاجتماعي أجدر ، وبه أولى ، وعليه أقوى .

وما أقمن الأديب أن يعرف مكانه هذا من الصفوف ، إذ الناس غيره كلٌّ الى جهد خاص معنيٌّ به ، لا يلتفت معه إلاّ في القليل لهذا المعنى الاجتماعي ، الذي به النهوض والسبق ، والذي سلاحه القول الجاذب ، واللسان الخالب .

ويا كثر ما نرى هؤلاء الذين تخلفوا عن الاتصال بالحياة الاجتماعية مستهلّ حياتهم ، سرعان ما يهيئون ، حين يجدون لهم بين أممهم مكاناً تتهيأ لهم أسبابهُ ، فيؤدّبون ألسنتهم على القول ، وأقلامهم على الكتابة . وما بغيرهما يأخذ الناس عنهم ويصيخون لهم .

* * *

يجهل الأديب حقّ أمره إذا ظن أنه لغير المجتمع يعيش .

وينسى الأديبُ نفسه إذا لم يؤمن أنّ ماله في غير هذا فهو فرجة المضيق ، وتنفّس المُتلهّي ، وإراحة المستروح .

*

نريد أن نرى للأدب سيادة ، ولا سيادة للأدب إلاّ أن يعرف الأدباء أن مكانهم مع القادة والزعماء . ولن تنتهي إليهم مقاليدُ الأمور ، إلاّ إذا كانت لهم الصرخة الأولى ، والكلمة السابقة ، وعاشوا للمجتمع من حولهم ، ثم لفكرة ينفحون عنها ، وكان لهم مع هذا إيمان وإقدام ، ثم نفوس كبيرة لا تباع ولا تشرى .

*

هذه هي رسالة الكاتب أو الشاعر في الحياة . ولنا في الشعر كلمة ، إلى عودة قريبة سنقول فيها عن النثر أخرى .

موازين الشعر

خضع الشعر لموازين ، هي مع الحاضر على غرارها في الماضي ، مع تلوين في الأسلوب ، وتحوير في الفكرة . ذلك عدا نظرات خاطفة جريئة جاءت على غير هذا النهج الموروث في قدر الشعر وتقويمه .

وقد رأينا قدامة بن جعفر في كتابه « نقد الشعر » ، والقيرواني أبا علي الحسن بن رشيق في كتابيه « العمدة » و « قراضة الذهب » ، وابن عبد ربه أبا عمر أحمد بن محمد في الزمردة الثانية من كتابه « العقد الفريد » ، والعسكري أبا هلال الحسن بن عبد الله في كتابه « الصناعتين » . رأينا هؤلاء جميعاً ومن لفّ لفّهم ، مع هذه الموازين لا يحورون عنها .

فهم إذا نظروا للشعر نظروا إلى عروضه ووزنه ، أو غريبه ولُغته ، أو معانيه ومقاصدها ، ثم مازوا بعد هذا جيّده من رديئه .

ذلك شيء ألفناه عنهم ، وتأثرناهم فيه ، مع خروج قليل على ما رسموه ، لا يقفنا منهم ببعيد .

وفي خَلَدي أن هذا الفن ، فن نقد الشعر ، قعّد قواعده الأولى الشعراء المتقدمون أولاً ، بما ثار بينهم ، ثم جاء العلماء في أعقاب الشعراء ، فجمعوا ما تناثر من ذلك وضموا إليه ما آخذهم ، ومن هذا وذاك كان هذا الفن .

* * *

نقصد بما ثار بين الشعراء نحو ما كان بين امرىء القيس وعلقمة بن عبدة التميمي حين نزل علقمة بامرىء القيس ، وكان صديقاً له ، وتلاحيا أيهما أشعر ، وانتهيا إلى أن ينعت هذا فرسه وذاك فرسه ، وارتضيا أم جُندب ، امرأة امرىء القيس . لتفصل بينهما. فقال امرؤ القيس :

خليليَّ مرَّا بي على أم جندب نقضِّي لبانات الفؤاد المعذَّبِ

إلى أن قال :

فللسوط ألهوبٌ وللساق درَّةٌ وللزجر منه وقعُ أخرج مُهْذَبِ

وقال علقمة :

ذهبتَ من الهجران في غير مذهب ولم يكُ حقًّا طول هذا التجنبِ

الى أن قال :

فأدركهنَّ ثانياً من عنانه يمرُّ كمرِّ الرائح المتحلب

فقالت أم جندب لامرىء القيس : علقمة أشعر منك . قال : وكيف ؟ قالت : لأنك جهدت فرسك بسوطك وزجرك ، ومريته فأتعبته بساقك . وأما علقمة فأدرك فرسه ثانياً من عنانه ، لم يضربه بسوطه ولم يتعبه .

*

ومثل هذا ماكان بين النابغة وحسَّان بسوق عكاظ ، حين أنشد حسان النابغة :

لنا الجفنات الغرُّ يلمعنَ في الضحى وأسيافنا يقطرنَ من نجدةٍ دما

ولدنا بني العنقاء وابنيْ محرِّق فأكرمْ بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : أقللت جفانك وسيوفك — لأنه قال : جفنات ، وهي لأدنى العدد ، والكثير جفان . وقال : وأسيافنا وأسياف جمع قلة ، والكثير سيوف — وقال له : فخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك — لأنه قال : ولدنا بني العنقاء وابني محرق . فترك الفخر بآبائه ، وفخر بمن ولد نساؤه .

*

وقريبٌ من هذا وذاك ماكان من أهل المدينة حين قدم عليهم النابغة فأسمعوه على لسان قَينة مغنية شعره الذي أقوى فيه :

سقط النصيفُ ولم ترد إسقاطه فتناولتْه واتَّقتنا باليدِ

بمخضّب رَخْصٍ كأنّ بنانه عَنَم يكاد من اللطافة يُعقدُ

ومدت الجارية في الضربين صوتها . فانتبه ولم يعد الى ما وقع فيه .

*

ويذكرون أن الذي هاج الشر بين جرير وعمر بن لجأ ، أن ابن لجأ حين أنشد أرجوزته التي يقول فيها واصفاً إبله :

تَجُرُّ بالأهون من إدنائها جرَّ العجوز الثني من خفائها

قال له جرير : أخفيت مَرَّها . قال : فكيف أقول ؟ قال : قل :

جرّ العروس الثني من خفائها

فقال له ابن لجأ : لقد قلتَ أسوأ من هذا . قال : وما قلت : قال : قولك :

وأوثق عند المردفات عشيّةً لحافاً إذا ما جرّد السيفَ لامعُ

فجعلتهنّ مُردفات غُدوة ، ثم تداركتهن عشية وقد نُكِحنَ .

* * *

ذاك شيء مما عاب به شاعرٌ شاعراً ، أو تُرك الحكم فيه لغيرهما يفصل بينهما . وقد رأيته لا يخرج عما أجملنا أولاً ، وأنّ الأمر فيه جرى على النسق المعهود .

أما من مآخذ العلماء على الشعراء ، فقد أدركوا على عمرو بن أحمر الباهليّ قولَه يصف المرأة :

لم تدر ما نسجُ اليرندج قبلها ودراس أحْوص دارس متجدّد

فقالوا : ظنّ اليرندج ، وهو جلود سود ، شيئاً يُنسج .

وأدركوا على لَبيد قوله :

ومُقام ضيّق فرّجته بمقامي ولساني وجدَلْ

لو يقوم الفيل أو فيّاله زَلّ عن مثل مُقامي وزحل

وقالوا : ظن أن الفيّال أقوى الناس ، كما أن الفيل أقوى البهائم .

وأخذوا على الأخطل قوله في رجل من بني أسد يمدحه ، وكان يُعرف بالقَيْسن ، ولم يكن قيْساً ، فقال فيه :

نِعم المجير سماك من بني أسد بالمَرْج إذ قتلت جيرانها مُضرُ
قد كنت أحسبه قيناً وأنبؤه فالآن طُيِّر عن أثوابه الشرر

وقالوا : هذا مدح كالهجاء .

وأخذوا على أبي نُخيلة الراجز قوله في وصف المرأة :

مُرِيَّة لم تلبس المَرقَّا ولم تَذق من البُقول الفُستُقا

فجعل الفستق من البقول ، وإنما هو شجر .

* * *

هذا قَليلٌ من كثير من مآخذ العلماء على الشعراء ، وفيما أوردنا غناء ، فكله من هذا وإليه .

على هذا جرى النقد وكانت هذه مادته . ولم نرَ جديداً عليه مع امتداد الزمن وانفساح الأجل .

وهذا لاشك جميل ، في ظله ضمان لسلامة الشعر ، وأمْن من سقطات الشعراء ، ولكن مثَلنا في هذا مَثل الجندي ، يقضي الى الأمد المضروب له أيامه ، في حركات وسكنات ، ومن ورائه مؤدِّبوه يعدُّون عليه الهفوات ويُمِدُّونه بالإرشادات ، ثم يعود إلى حيث أتى ، ولم تكتب له في صحيفته الحربية كلمة .

لقد حذق الجندي الكرَّ والفر ، وأجاد أساليب الكفاح . ولكنه لم ينزل إلى ميدان يسجل فيه بتلك اليد المدربة ، والسيف المشحوذ ، عملاً يكسبه المجد والفخر .

تعني أن الشاعر ليس عند الإجادة ينتهي أمره ، وليس مع الإفصاح يبلغ كل شيء .

هذا كله إعداد وتكوين ، وما رأيناه جاء من النقد جاء لهذه المرحلة وحدها من حياة الشاعر ، وما وجدنا بعدها لناقد نقداً .

كأنَّ كل همِّنا هو أن ننشئ قائلاً مبرأً من الآمة ، سليماً من العاب ، بعيداً من الذام .

ثم ماذا يراد بعد هذا من القائل؟ وأي شيء نرجوه منه؟ هذا ما لم نلتفت إليه إلاّ في قليل من أمر قد يكون متصلاً بما قبله .

* * *

للشاعر الذي له ببيانه ملك العقول ، والولوج الى القلوب « رسالة » علينا أن نحاسبه عليها في نقدنا له .

وليست هذه الرسالة بأقل شأناً من النظر إلى جودة بضاعته ودقة صناعته ، بل إن شاعراً يحمل إلى ضعف بيان ، رسالةً يسعى إلى أن يجمع الناس عليها ، خير عندي من شاعر يمضي بقول معسول ، وكلام جيد الصوغ ، دون أن يهدف الى هدف .

* * *

الشاعر والكاتب من حماة البنيان ، ومثبتي الأركان ، والكاشفين الغشاوات ، والمبصرين بالهدايات ، والجامعين الى الرأي ، والداعين الى ما يدينون ، والمنفرين عمّا يستهجنون ، بما وهب الله لهم من قول شهيّ ، ولفظ طلي ، له وقْعُه في النفس ، ولفته للحس .

فإذا رأيت شعراً أو نثراً في غير رسالة يحمل لواءها الشاعر والكاتب ، فتلك شجرات لم تثمر ، لها الاسم وما حملت غيره .

وهذه جملة من معروفي الشعراء ، في الحديث عنهم ما يفصّل هذا الإجمال ، ويكشف عما نريد .

أمرؤ القيس

دعني من الحديث حول اسمه، وما أضيف اليه من ألقاب، ودعني من وقوفه على الديار، وبكائه على الأطلال، وسبقه الشعراء في تشبيه الفرس بالعُقاب، وقلوب الطير بالعنّاب، والنساء بالظباء، فذلك له مكان آخر.

وخل بيني وبين أن أجمل لك نشأته، وأوجز حياته في غير إخلال. فنحن على أن نعرف امرأ القيس صاحبَ رسالة، أحرص منّا على أن نعرفه في صور جميلة من القول.

* * *

للمؤرخين قصة في نزوح آل امرىء القيس الكنديين عن اليمن الى نجد. يفتتحونها بتلك الفوضى التي شاعت في بكر، ووقف الناس فيها وجهاً لوجه، خصوماً يتقاتلون، لا أمن لهم الى سلطان يحميهم، ولا طمأنينة الى رئيس منهم يدفع العادية عنهم، ويردّ كيد الأقوياء وغلبة السفهاء.

فرأى ذوو الرأي منهم أن يجعلوا الأمر الى سلطان من غيرهم، يُعطونه الشاة والبعير، يعيد الحياة آمنة مطمئنة، بعد أن ملئت ذعراً واضطراباً، ويسوس الناس بالعدل، بعد أن فقدوه في ظل من وَلي عليهم من ذوي قُرباهم.

فأتوا «حسّاناً» تُبّع اليمن. فملّك عليهم «حُجراً» آكل المرار، من أجداد امرىء القيس. وبحُجر هذا بدأت هذه الأسرة الكندية تنزل «نجد»، وكانت لحُجر جولات مع المناذرة ملوك الحيرة، والغساسنة ملوك الشام، في جُند من بكر، كُتب له معها النصر. فالتفّ البكريون حوله، واجتمعوا على حُبه وطاعته.

ومات «حُجر» فخلفه ابنه «عمرو» يسوس أمر «كندة». ثم مات «عمرو» فولي بعده ابنه «الحارث» فغزا الحيرة، وأخرج منها المنذر، مستعيناً بقُساذ ملك الفرس،

وكان يجد على «المنذر» حين أبى أن يدين معه «بمزدك».

عزّ الحارث وعلا شأنه، وغدا مقصوداً في الملمات، مطلوباً في النجدات. يُطلب رضاه، ويُشترى جواره.

* * *

وتسوء الحال بين قبائل نزار، كما ساءت من قبل في بكر، فيهرع رجالهم الى الحارث يسألونه أن يولي عليهم ملكاً من أبنائه، يضبط أمرهم، ويقيم معوجهم، ويجعل الأمور الى ثبات واستقرار.

فيفرق الحارث أولاده فيهم. فيصبح «حُجر» والد امرىء القيس، على بني أسد وغطفان؛ و «شرحبيل» على بكر بن وائل وبني حنظلة وطوائف من بني دارم، من تميم والرباب؛ و «معد يكرب» على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم بن حنظلة؛ و «عبد الله» على بني عبد القيس؛ و «سلمة» على بني قيس.

وفي نحو سنة ٥٤٠ م مات «قباذ» وخلفه «أنو شروان»، ولم يكن مزدكيًّا كأبيه، فلجأ إليه «المنذر» يستنصره على «الحارث» الذي شايع «قباذ» على المزدكية ويطلب «أنو شروان» «الحارث» فيخرج هائماً على وجهه.

وفي بني كلب توافيه منيته. فيقضي بيد «كلب»، كما زعمت «كلب»، أو بفلذة من كبد ظبي، كما زعمت «كندة». وفي ذلك يقول الوليدُ بن عديّ الكندي:

فشوَوْا فكان شواؤهم خطأً له إن المَنيّة لا تُعجل جليلا

وتهي حالُ أبناء «عمرو» وتتفرق كلمتهم. فيقتل «سلمةُ» «شرحبيل»، ثم يهلك سلمةُ على يد المنذر.

وبقي «حُجر» على بني أسد. وكانت له عليهم إتاوة لا يقوون عليها في كل سنة. فعبر دهراً، ثم بعث إليهم جابيه، فمنعوه ذلك. و «حُجر» يومئذ بتهامة. وضربوا رسله وضرجوهم ضرجاً شديداً قبيحاً.

فسار إليهم «حُجر» بجُند من ربيعة، وجند من جند أخيه «قيس» و «كنانة».

فأخذ سراتهم، وصيرهم الى تهامة، وجعل يقتلهم بالعصا، فسُمُّوا عبيدَ العصا. وأباح الأموال، وحبس منهم عمرو بن مسعود، وكان سيداً، وعَبيد بن الأبرص الشاعر.

وقام عبيد بين يدي الأبرص يستلين قلبه ويقول:

يا عينُ فابكي ما بَني أسـد فهم أهلُ الندامه
أهلُ القباب الحمر والنَّـ ـعم المؤبَّل والمدامه
في كل وادٍ بين يثـ ـرب فالقصور الى اليمامه
تطريبُ عانٍ أو صيا ح محرِّق أو صوتُ هامه
أنت المليكُ عليهمُ وهم العبيدُ الى القيامه
ذلُّوا لسوطكِ مثل ما ذلَّ الأشيقر ذو الخزامه

فرقَ لهم حجر، وبعث في إثرهم، فأقبلوا. فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر «حُجر» فهجموا على قُبته. وأقبل عليه «عِلباء بن الحارث الكاهلي»، وكان «حُجر» قد قتل أباه، فطعنه فأصاب نَساه.

ونادى بنو أسد: يا معشر كنانة وقيس، أنتم إخواننا وبنو عمِّنا، والرجل بعيد النسب منا ومنكم. وقد رأيتم ما كاد يصنع بكم هو وقومه.

فشدّوا على هجائنه فزقوها، ولفوه في ريطة بيضاء، وطرحوه ظهر الطريق. فلما رأته قيس وكنانة انتهبوا أسلابه، وأخذوا جواريه ونساءه، وملئوا أيديهم بالغنائم.

* * *

هذا حديث الآباء وهذه أحداث أيامهم. فأين امرؤ القيس؟

كان امرؤ القيس لما قُتل أبوه غلاماً قد ترعرع، مقيماً في بني حنظلة، لأن ظئره كانت امرأة منهم، كما روى الهيثمُ بن عديّ. ويروي له عندما طير اليه النعي:

يا لهفَ هند إذ خطِئن كاهلا القاتلين الملكَ الحُلاحِلا
تالله لا يذهب شيخي باطلا يا خير شيخ حسباً ونائلا

وفي رواية أخرى للهيثم ، أن امرأ القيس كان بدمُّون من أرض اليمن ، في قصْفه ومجونه . فلما أتاه نعي أبيه ، قال :

تطاول الليلُ على دَمُّون دمون إنا معشر يمانون

وإننا لأهلنا محبُّون

أما عن خروج امرىء القيس الى دَمون ، فيروي ابن الكلبي أن « حجراً » كان طرد امرأ القيس وآلى ألاّ يقيم معه ، أنفةً من قوله الشعر . فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شُذّاذ العرب ، من طيء وكلب وبكر بن وائل . فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه ، وخرج الى الصيد فتصيد . ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم وغنّته قِيانه . ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء الغدير فينتقل عنه الى غيره ، حتى انتهى الى دمون ، وفيها وافاه خبر مقتل أبيه .

ويضيف الرواة سبباً آخر لغضب «حُجر» على ابنه ، لم يكن غير فُحشه واستهتاره واتهامه بزوْج من زوجاته . ويقولون : إن «حجراً» دفعه الى مولى له يُدعى ربيعة ليقتله ويأتيه بعينيه . ولكنّ المولى كان يعلم مدى غضبة الآباء . ولأنّ قلبه لامرىء القيس حين سمعه يقول :

لا تتركنّي يا ربيعُ لهذه وكنتُ أراني قبلها بك واثقا

نخلاه . وعاد الى أبيه بعيني جؤذر . ولما أحسّ جزع الأب كشف له عما أخفى . ففهم « حجر » اليه ابنَه ثم عاد فطرده .

* * *

هذا هو الشطر الأول من حياة امرىء القيس ، عاش فيه للهو والمجون ، وشغِل بالنساء ، فيوماً مع أم مالك يقف على أطلال ديارها فيقول :

قفا نسأل الأطلالَ عن أمّ مالكِ وهل تخبر الأطلالُ غيرَ التهالكِ

ثم يتشوّق الى أم جندب زوجه فيخاطب خليليه :

خليليّ مرّا بي على أم جُندبٍ لنقضي لُبانات الفؤاد المعذّبِ

وتعروه ذكريات سليمى فيشكو :

يا بؤس للقلب بعد اليوم ما آبَهْ ذكرى حبيب ببعض الأرض قد رابَهْ
قالت سليمى أراك اليوم مكتئباً والرأسُ بعدي رأيت الشيب قد عابَهْ

ثم يذكر أيامه مع « الخنساء » فيحكي عنها :

قالت الخنساء لما جئتها شابَ بعدي رأس هذا واشتهب
عهدتني ناشئاً ذا غرّة رجل الجُمّة ذا بطن أقبَ
وهي إذ ذاك عليها مئزرٌ ولها بيت جوار من لُعَب

ويحضره موقفٌ له مع « رقاش » فيصفه :

قامت رقاش وأصحابي على عجل تبدي لي النَّحر واللّبات والجيدا

ويجلس الى نفسه يعرض لياليه مع « الرّباب » و« فَرْتَني » و« لميس » فيقول :

لمن الديارُ غشيتها بسجام فعمايتين فهضب ذي أقدام
دار لهندٍ والرّباب وفَرْتَني ولَميس قبل حوادث الأيام

ويغلبه هوى « هر » فيملي عليه :

وهرٌ تصيد قلوبَ الرجال وأفلت منها ابنُ عمروٍ حجر
رمتني بسهم أصاب الفؤاد غداةَ الرحيل فلم أنتصر
فأسبل دمعي كفض الجُمان أو الدُّر رَقْراقه المُنحدر
كأنّ المُدام وصوبَ الغمام وريحَ الخزامى ونشر القُطر
يُعلُّ به بردُ أنيابها إذا طرَّب الطائر المُستحر

ويذكر بفراق « هر » فراق « سلامة » و « قذور » فيقول :

عفا شُطب من أهله فمزور فربولة إنا الديار تدور
فجزع محيّاة كأن لم تقُم بها سلامة حولاً كاملاً وقذور

ويعود إلى « بسباسة » يفند زعمها فيه :

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرتَ وألاّ يُحسن السرَّ أمثالي
كذبتِ لقد أصبى على المرء عرسه وأمنع عرسي أن يزنَّ بها الخالي

وتشوقه « سعاد » فيقول :

لعمري لقد بانت بحاجة ذى الهوي سعاد وراعت بالفراق مُروَّعا

ويعتب على « ليلى » جفوتها في قوله :

تنكرتْ ليلى عن الوصلِ ونأت ورثَّ معاقد الحبلِ

وتقرأ معلقته فتجد فيها ذكراً للحويرث وأم الرَّباب في بيته :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها ، أمّ الرّباب بمأسلِ

ثم لعُنيزة التي يقول فيها :

ويومَ دخلتُ الخِدرخدرَ عُنيزة فقالت لك الويلاتُ إنك مُرْجلي

ثم لفاطمة في بيته :

أفاطمَ مهلاً بعضَ هذا التدلل وإن كنتِ قد أزمعت صرمي فأجملي

والى هذا العبث النسائي وصف امرؤ القيس جريه في إثر الوحش :

خرجنا نريغ الوحش حولَ ثُعالة وبين رُحيَّات الى فج أخرب

(ثعالة ورحيات وأخرب : أمكنة)

فآنست سرباً من بعيد كأنه زواهر عيد في ملاء مُهذَّب

كما وصف فرسه ومقعده منه بمثل قوله :

فقفَّى على آثارهنَّ بحاصبٍ وغيبة شؤبوب من الشد مُلهب

فللساق أُلهوب وللسوط درة وللزَّجر منه وقعُ أهوج مُنعب

وكذلك وصف إقدامه في مثل قوله :

ولم أشهد الخيل المغيرة بالضحى على هيكل نهد الجُزارة جوَّال

وقوله :

وقد أغتدي والطيرُ في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

* * *

أجل ، لهذا ومثله عاش امرؤ القيس ، هذا الشطرَ الأول من حياته ، لم يبتعد في قليل ولا كثير عنهُ ، ولا التفت لغيره .

وبلغه مقتل أبيه فهبَّ يطلب بدمه ، ويستنصر على قاتليه . أو قل : يسعى لملك خلا الطريقُ أمامه اليه . فقد كَنَع إخوته ، وكانوا يكبرونه سنًّا ، ورأوا الخطب فوق قوتهم ورأى هو الفرصة مواتية . وإنما هي جولة أو اثنتان يتربع بعدها على عرش أبيه ، ويستبدل بتلك الرعية من الشذّاذ رعية فيها الوجوه والسادة .

ذلك عندي ما دفع بامرىء القيس دون إخوته ، إلى ما أقدم عليه . وقد كان فيما فعله أبوه معه ما ينكّب به ويصرفه عن هذا السبيل ، إن كان الأمر الى الثأر ، وإلى الثأر وحده .

* * *

ومن هنا بدأ الشطر الثاني من حياة امرىء القيس .

أخذ امرؤ القيس يتهدّد بني أسد ويتوعدهم ويهيء لغزوهم في شعر كثير منه :

أتاني وأصحابي على رأس صيْلَعٍ حديثٌ أطار النوم عني وأنعما
فقلت لعجليّ بعيدٍ مآبه تبيّن وبيّن لي الحديث المُعجّما
فقال أبيت اللعن عمرو وكاهلٍ أباحوا حِمى «حُجر» فأصبح مسلما

وتظن بنو أسد أنها لا طاقة لها به ، فتُوفد عليه الوفود يعرضون عليه الفداء في صور شتى ، أو المُهلة حتى تضع الحوامل . فيجيبهم الى النظرة ويأبى الفداء .

وكان في الوفد قبيصة بن نُعيم فقال له متمثلاً :

لعلّك أن تستوخم الموتَ إن غدت كتائبنا في مأزق الموتِ تمطَر

وأنت ترى أن القوم لم يعرضوا على امرىء القيس عرش أبيه فيهم . فكأنهم أقرّوا الثائرين على ما فعلوا ، وسئموا زعامة الكنديين عليهم ، ونفضوا أيديهم من هذا الأمر ، وجاءوا الى امرىء القيس لارعايا مُستيبين مسلمين ، بل راضين خلاصهم ، طامعين في أن يشتروا الدم المراق ، بعُروض وأرزاق .

وعبّأ امرؤ القيس جموعاً من تغلب ، وأدرك بني أسد على بعض المياه ، فأنكى فيهم ، ففرّوا مع الظلام . وأراد امرؤ القيس السير خلفهم ، فأبى عليه ذلك رجال بكر وتغلب ، وانصرفوا عنه الى ديارهم .

ويحسب البكريون والتغلبيون الخطبَ ثأراً ، ويراه امرؤ القيس عرشاً : فيخرج إلى

مرثد الخير ، قَيل من أقيال حمير ، يستنصره . فيعده ، وتعاجله المنية دون أن يُعين . ويخلفه قرْمل بن الجُميم ، فيجيب امرأ القيس الى ما طاب على غير رضى . ثم ينفض أكثر هذا الجند عنه بتأليب المنذر عليه .

*

ويقصد امرؤ القيس العشائر يلتمس العون ، فيؤم أمَّ سعد بن الضباب ، فيكرمه ، فيقول فيه :

يفاكهنا سعدٌ ويُنعم بالنا ويغدو علينا بالجفان وبالجُزُر

ويرى امرؤ القيس العون عند هذا ، فيتركه الى المعلى بن تيم . واذا ما أكرم المعلَّى وفادتَه انطلق لسان امرىء القيس يمدحه :

كأني اذ نزلتُ على المُعلَّى نزلت على البواذخ من شمامِ

ثم يساء اليه فيخرج إلى عامر بن جوين . ولكنه يخافه على نفسه ، فيفرّ الى بني ثعل ، ثم إلى نزار . فيدله رجل منهم على السموأل . ويكتب السموأل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ، لإيصال امرىء القيس إلى قيصر ، ملك الروم .

ويمد قيصر امرأ القيس بجيش . ويوغر الطماح بن قيس الأسدي صدر قيصر ، فيكيد لامرىء القيس . ويختار الرواة حديث الحُلة المسمومة . فيقفي امرؤ القيس فيها نحبه .

* * *

فحياة امرىء القيس كما رأيت شطران ، شطر لهذا اللاهو والمُجون ، على رأس شرذمة من الصعاليك . والشطر الثاني في رحلة وتطواف ، من قبيل الى قبيل ، يحظى هنا ويخيب هناك .

وكان لهذين الشطرين شعره . أشبع في الأول نزواته وجرى مع طيشه ، وعاش في الثانية مدّاحاً هجّاء ، يشكر المعينين ويذم المخيبين . عدا قليل صدر عن النفس ، في بعض ما تجد وتحس .

وجُلّ ما قال امرؤ القيس لا شك جميل فيه قوة وفيه رصانة ، له هزة ومعه طرب .

ولكن أهذه هي رسالة امرىء القيس ؟ أو لهذا كان شعره الذي شغل الناس به ولا يزال يشغلهم ؟ وهل كل ما يعنينا عنه هذا التراث الذي كان خالصاً له ، ليس للناس حوله منه نصيب ؟

لقد كان العصر قلقاً مضطرباً ، تسوده فوضى وبلبلة . فقد فيه الناسُ أساليب الحكم المنظم ، وانمحت موازين العدل ، وأضلّ الناس الوازع ، واطرحوا الثقة جانباً بسرواتهم حين لم يجدوا منهم رُعاةً صالحين ، وقادةً مُنصفين ، فمدُّوا اليدَ على كُرهٍ يلتمسون عادلاً من غير قومهم ينشر عدلاً افتقدوه ، ومُنصفاً يبسط إنصافاً حُرموه .

وكانت هذه النفوس التي عرفت العدل والظلم ، والإنصاف والجوْر ، والحق والباطل ، والتي اشترت من تحكمه عليها اشتراء ، حَريةً أن تعُدَّ على الحاكم خطواته ، وألاّ تغفل ساعة عن النظر فيما يأخذ فيه من فعل أو قول .

كانت هذه النفوس التي أدَّبتها الحوادث ، ونشأتها المحن ، جديرة ألاّ تُخدع عن أمرها ، وألاّ تني عن هبَّتها ، إن أحسَّت ضيماً ، أو سيمت خسفاً .

لذلك رأيناها لم تسكت على جنف الغريب النازح — كما لم تصبر من قبل على ظلم المُواطن الفادح ، فتنكرت لحجر ، وكان من حديثها معه ما كان .

وليس الأمر أمر ثورة ، ولكنه عصر فدحته أعباء ، وآدته نُظُم كان يراها لا تجري مع مطالبه وأمانيه . ولو زادتنا المراجع لزدناك عنه بياناً ، ولكنه مع تلك الإشارات واللمحات ، يدلنا على حقبة من تلك الحقب الصاخبة التي تمتحن فيها الشعوب ، فتخرج منها إمَّا الى سؤدد ورفعة ، وإما الى ذلة وهوان . عاش الناس فيها في صراع يهدأ ليستجم ، ويتوزَّع ليتجمع ، ويخمد ليذكو .

فأين كان امرؤ القيس من هذا كله ، وأين وجدانه الشاعري ؟

أما في النصف الأول فإنا لا نشم لهذا ريحاً ، بل يكاد القلم يكتب : ان امرأ القيس بحياته كان سبباً من أسباب الانقلاب الذي جنى أبوه شرَّه .

أنسيت كيف عدا امرؤ القيس على الحرُمات ، واقتحم الخدور على الزوجات ؟ ألم تسمع الى قوله:

فأصبحتُ معشوقاً وأصبحَ بعلها عليه القَتام سيءَ الظنِّ والبالِ
يغط غطيط البَكر شدَّ خِناقه ليقتلني والمرء ليس بقتّال

أو إلى قوله في معلقته :

فمثلك حُبلى قد طرقتُ ومرضعٌ فألهيتُها عن ذي تمائم محْوَلِ

* * *

أو نسيت أنه تزعَّم شرذمة عاش معهم على ما يُنتهب ويُبتز ؟

ثم أنسيت بعد هذا وذاك شعراً لم يُصنع لحكمة أو سداد ، وإنما قيل في التشهير بما يحرص الناس على أن يُستر ، ويخشون أن يُذيع .

أما عن النصف الثاني ، فأنا لا أكاد أعدُّ ما صدر عنه فيه شعرَ شاعر . وقد عوَّدنا ناظم يُكثر من قول الشعر ولا يُجيده ، أن يُرسل لنا مع أول كل شهر أبياتاً يسألنا بها شيئاً . فكنت أذكر به امرأ القيس ، مع ما فرّق الأمر بينهما فيه ، من إجادة وإسفاف . ولكنهما في الغرض سيّان . فهذا يسأل قروشاً للعيش ، وذاك يسأل جنوداً للبطش . ولو سوَّى البيان بينهما لتعادل الشعران قوة . ولكن أين الغرض ؟ وأين الدافع النفسي السامي ؟

ما كان أجدر امرىء القيس أن يضبط لسانه ويسمو بشاعريته عن السؤال والضراعة ، وما كان أحراه أن يجعل الشعر للكرِّ والفرِّ كما جعله في بعض الأمر .

أفترى بعد هذا ان امرأ القيس عاش لرسالة ؟ .

أما إنه لو التفت إلى ما حوله ، واستجابت نفسه لتلك الصيحات الآلمة ، وشارك بوجدانه الشاعري ، وكشف لنا عمّا يجده في نفسه لهذا الذي خاض الناسُ غمراته بحاراً من دماء ، كان لهم أو عليهم ، لعددناه مع أصحاب الرسالات من الشعراء ، ولخلَّد مع ألفاظه الشعرية معاني تعيش في صدور من تعمر قلوبهم بالوجدانات ، التي لا يُعرف الشعراء إلاَّ بها ، بل إن الشعراء بها يُعرفون قبل أن يعرفوا بالقول المعسول واللفظ المونق الجميل .

في الحق لقد عاش امرؤ القيس ذا أذن صمّاء ، لا يحمل حِسَّ الشاعر ووجدانه ، وإن ملك لسانه . أو قُل إنه عاش لنفسه . وليس هكذا يعيش الرسل من الشعراء . وما نظلم امرأ القيس غيرَ هذا مما أجمع الناس له عليه ، فهو فيه جُذيلها المرجَّب ، وحُجيرها المؤوَّب .

النابغة الذبياني

ينتهي النابغة أبو أمامة زياد بن معاوية الى ذبيان، وذبيان الى غطفان، وغطفان الى قيس.

وغطفان قومٌ ذوو مِراس وبأس شديد. عرفت جيوشُ المسلمين لهم ذلك حين تراءى الجمعان يوم ذات الرِّقاع، فانحاز كلٌّ الى ناحية، وخاف الناس بعضهم بعضاً ولم تكن حرب. وشرع الله صلاة الخوف في تلك الغَزاة.

ورأينا غطفان مع الأحزاب يوم الخندق يلتمون بالمدينة محاصرين، ورأيناهم يوم ذي قرد عليها مُغيرين، ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم بين ظهراني المسلمين.

ورأيناهم أول بادىء بالغارة على المدينة يوم ذى القصة. وأبو بكر يلي أمر المسلمين خليفة عليهم.

وعرفنا لهم حروباً شنتها البطون، وصليتها العشائر، وأخرى ثارت بينها وبين غيرها من القبائل تُعيي الحصر، وليس من اليسير أن يُحيط بها إحصاء.

*

هؤلاء هم غطفان، أهل النائرة والثائرة، يكاد يكون لهم في كل فِنْي الى جوارهم دم. وهكذا كان العصر الذي يظلهم، ما طلعت له شمس إلاّ على حرب، ولا غربت إلاّ مع أهبة لأخرى.

وبين ذبيان خاصة وعبس كانت حرب داحس والغبراء. بقيت أربعين سنة، لم تُنتَج لهم فيها ناقة ولا فرس — كما يروي أبو الفرج.

ذكر المؤرخون لهم فيها أياماً، دارت فيها الدائرة لعبس يوماً ولذبيان يوماً، وعدُّوا منها يوم المريقب، ويوم ذي حُسا، ويوم اليعمرية، ويوم الهباءة، وأياماً أخرى غيرها. أشبعوا فيها سباع الطير من لحومهم، وسقوها قانياً من جاري دمائهم. وانطلقت فيها

ألسن الشعراء بالقول ، يذكرون بلاء قومهم وبلاءهم ، ويُنذرون على خصومهم كبواتهم ، ويذكرون قتلاهم فيندبونهم ، ويتوعدون بالثأر قاتليهم .

وكاد الشعر أن يكوّن لنا سجلاً مسطوراً يضم حديث الحرب وما دار فيها .

* * *

أظلت سحابةَ هذه الحروب النابغةَ ، وكان معها ، إن صحّ تقدير المؤرخين ، في الأربعين أو دونها بقليل [1] .

ففي العام الثامن والستين بعد الخمسمائة ، بدأت حرب داحس . ويقدر أبو الفرج الأصبهاني عمرها بأربعين سنة . ويكادون يتفقون على أن النابغة عاش الى الرابعة بعد الستمائة ، وأنه مات معمراً بعد أن وخطه الشيب . ويروون له مرثية رثى بها النعمان بن الحارث الغساني . وكان قتل في غزاة له سنة ستمائة ، تشير الى شيبه ، فوق ما تشير الى حياته الى تلك الأيام ، وفيها يقول النابغة :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازلُ وكيف تصابى المرء والشيبُ شامل

هذا جانب من الحياة التي احتوت النابغة ، عاش قومه فيها في شكّتهم وعلى ظهور خيلهم تتركه الى حين ، حتى نقفو خطوات شاعرنا من مهده الى لحده ، ونحصي عليه حركاته ثم كلماته .

* * *

نشأ النابغة في نجد ، في الذروة الحصداء والركن الأشد عند نفر ، أو في الوسط من قومه كما يذهب الى ذلك نفر .

ولا تحفظ لنا الآثار من شبابه غير حديثه مع حاتم الطائي من أجل ماوية . وبعد هذا يأتي الحديث عن النابغة بين المناذرة ملوك الحيرة ، وبين الغساسنة ملوك الشام .

فأول ملوك الحيريين ، فيما يروون ، مالك بن فهم بن دوس ، وكان سار من اليمن مع ولد جفنة بن عمرو بن عامر مزيقيا . فسار بنو جفنة نحو الشام ، وانفصل مالك نحو العراق .

---

(1) De Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes.

وملك بعده ابنه جذيمة، من مشارف الشام الى الفرات . ثم بعد جذيمة ابن أخته عمرو ابن عديّ بن نصر بن ربيعة . وكان أول من نزل من الملوك الحيرة واتخذها منزلاً ومقر ملك ، وبعد جذيمة كان امرؤ القيس بن عمرو بن عدي ، ثم عمرو بن مرىء القيس ، وهو محرق العرب . ثم النعمان بن امرىء القيس .

ثم ملك المنذر بن النعمان ، وأمه ماء السماء بنت عوف ، سميت كذلك لحسنها وجمالها . وهو فارس يوم حليمة ، بين المناذرة والغساسنة (سنة ٥٥٤) . ويذهب بعض الرواة الى أن النابغة اتصل به ، وان ذلك قبيل مقتله يوم حليمة .

وبعد المنذر ابنه عمرو ، ثم قابوس بن المنذر . ثم ملك النعمان بن المنذر . وحكم ، فيما يقال ، اثنتين وعشرين سنة . وهو الذي قال فيه النابغة فأكثر .

ثم كانت نكبة الحيريين على يد كسرى أبرويز ، وذلك بدسّ زيد بن عديّ عليهم عند كسرى ، وكان عديّ ينقم على النعمان قتله أباه زيداً .

* * *

أما عن الغساسنة فكان أول من ملك منهم بالشام الحارث بن عمرو بن عامر . ثم ملك بعده الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر . وأمه مارية ذات القرطين .

ثم عمرو بن الحارث . وكان النابغة فرّ إليه هرباً من النعمان أبي قابوس ، وقال فيه بائيته المشهورة:

ومنها : (كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب
علىّ لعمرو نعمةٌ بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب

ثم كانت صلته بأخيه النعمان بن الحارث بعد وفاة عمرو سنة ٥٩٧ . فيما يحكون .

وكان النعمان هذا — ويكنى أبا كرب وأبا حجر — غزّاء ، لا يغفر للبدو أن يعيثوا في أرضه ، وكان الى هذا فارساً مرهوباً .

وفي نحو سنة ٦٠٠ لقي النعمان حتفه في خرجة من خرجاته ، والناس بين مصدق ومكذب . فرثاه النابغة بلاميته :

وقفتُ بربع الدار قد غيّر البِلى معارفها ، والساريات الهواطلُ

أسائل عن سُعدى وقد مرَّ بعدنا على عَرصات الدار سَبْع كواملْ

ومنها :

ورَبِّ بني البرْشاء ذهل وقيسها وشيبان حين استبهلتها المناهل

(البرشاء : أم ذهل وقيس وشيبان ، أبناء نملبة . واستبهلتها المناهل أي أقامت بها مهلة لاحكم لسلطان عليها)

لقد عالني ما سرَّها وتقطَّعَت لروعاتها مني القُوى والوسائلُ

(عالني : حزني . وسرها ، الضمير لبني البرشاء)

فلا يهنئُ الأعداء مصرعُ ملكهم وما عَتَقت منه تميمٌ ووائل

(عتقت : نجت)

ومنها :

فإن تك قد ودَّعتَ غيرَ مذمَّم أواسيَ مُلك ثبَّتته الأوائل

فلا تبعدنْ إنَّ المنية مَوعدٌ وكُل امرىءٍ يوماً به الحال زائل

فما كان بين الخير لو جاء سالماً أبو حُجْر إلاَّ ليالٍ قلائل

واتصل النابغة بعد النعمان بن الحارث بحُجر . غير أنه لم يستطب المقام ، ورأى أن يعود أدراجه الى النعمان بن المنذر .

وهنا يختلف المحدثون . فيذكر ابن قتيبة أن ذلك كان عن دعوة من النعمان ، معها تأمين وغفران . ويعزو ابو الفرج ذلك الى إشفاق النابغة على النعمان حين انتهى إليه أنه مريض ، وكان يحبه . ويذهب أبو عبيدة إلى رأي أخير يظنه ، هو حنين النابغة إلى عطايا النعمان وعصافيره . وما كان ليخشى بطشه ومن ورائه عشيرته لا تسلمه ولا تخذله .

*

ترك النابغة الشام والغساسنة وقصد النعمان بالحيرة ، فأمنه وأدناه إليه واستنشده ووصله ولكن أيامه مع النعمان لم تطل . فقد قدمنا لك شيئاً عن نكبة النعمان على يد كسرى ، فلحق النابغة بقومه ، وعاد الى نجد مهده الأول متمثلاً بهذه الأبيات :

مَن يطلب الدهرُ تدركه مخالبُه والدَّهرُ بالوتر ناجٍ غيرُ مطلوبِ

ما من أناس ذوي مَجد ومَكرُمة إلاَّ يشد عليهم شدةَ الذيب

حتى يُبيد على عمد سراتَهمُ بالنافذات من النَّبل المصايب

بقي شيء يمت الى ذوق النابغة الشعري ، وبصره بنواحي القوة والضعف من الشعر ، نسوقه لا لتلك الصلة ، بل لدلالة أخرى تكشف لنا عن محل النابغة وبين الناس ، ولاسيما بين أضرابه من الشعراء ، ذلك أنه كان محكماً في سوق عكاظ ، تضرب له قبة من أدم ، وينشده الشعراء ، وله فيهم كلمة القاضي وفصل المسوَّد .

وتلك منزلة يفيد منها النابغة لو شاء كثيراً ، وفرقٌ بين ما يصدر عن المحل الأرفع والمحل الأدنى ، وبين كلام المصدَّرين وكلام المجنَّبين ، وإنك لتدرك أثر ما تقول وأنت إمام ، ثم وأنت من العوام .

هذا ما نريد أن نضمه الى حياة النابغة ، فلنا منه سبب من أسباب الفصل في أمر النابغة .

* * *

هذا هو عصر النابغة : حرب داحس والغبراء التي عاشت معه من اكتماله ، ثم خلَّفها مشبوبة مستعرة الى رَمْسه ؛ الى حُرَيْبات لا تعدو أن تكون عراكَ أيام بين قبيله والقبائل المجاورة ، منها ما كان من إغارة لقومه في أحلافهم من بني أسد على أرض الغساسنة ، بعد وقعة عين أُباغ ، التي هزم فيها المنذر الغساني قابوساً ، وبقيت المناوشة بعدها بين الغساسنة والمناذرة في غير هدأة ، وغنمت القبائل المحيطة الفرصة فأغارت هنا وهناك لتغنم ما تقوى على سلبه من هاتين الدولتين المشغولتين ؛ ومنها تربُّع الذبيانيين قومه مع بني أسد وبني تميم المرابع الحمية من أرض النعمان الغساني وسوقهم ما تقع عليه عيونهم من نعم وماشية أمامهم ؛ وما كان يتبع ذلك من نهضة المنذر ثم النعمان لتأديبهم والنيل منهم .

والرواة لا يذكرون بيتاً واحداً للنابغة في حرب داحس والغبراء ، على حين عني بها زهير بن أبي سلمة وخصها بمعلقته .

والنابغة وان لم يفعل هذه فقد فعل غيرها ، تنطق بمشاركته واتصاله بعشيرته . من ذلك جهده في أن يحفظ لقومه حلفهم مع بني أسد وبني تميم ليشتد بذلك أزرهم ، ويقووا على حرب العبسيين وأحلافهم من بني عامر ، وأنه لهذا وصل حبله بحبل الغساسنة فشفع فيهم لدى الحارث الغساني ، وكان أسر منهم جمعاً كانوا مع حليفهم المنذر .

ثم قيامه للعبسيين والعامريين الذين حاولوا جاهدين فصم هذه العروة ، منافحاً يهجو

أعداءه مرة ويمدح محالفي قومه أخرى . ترى شيئاً من هذا في قول النابغة يهجّن مسعى عيينة في إبعاد أسد عن ذبيان ، ويمدح بني أسد :

أَلِكْني يا عيين اليك قولاً ... سأُهديه اليك ، إليك عني
قوافي كالسِّلام إذا استمرت ... فليس يَرد مذهبها التظني

(السلام : الحجارة)

بهنَّ أدين مَن يبغي أذاتي ... مُداينة المُداين فَلْيدتني
أتخذل ناصري وتُعزُّ عبساً ... أيربوع بن غيظٍ للمعنّ

(ربوع بن غيظ : رجل من أحلاف النابغة . والمعن : الذي يتعرض لما لا يعنيه . يريد : عيينة ، واللام فيه للاستغاثة)

كأنك من رِجال بني أُقيش ... يُقعقَع خلف رِجليه بشَنّ

(الشن : القربة اليابسة)

تكون نعامة طوراً وطوراً ... هويّ الريح تَنسج كُل فنّ

(نعامة : في الحمق والجهل . وطوراً خدعة كالريح تنسج فنونا من الخدع)

تَمَنَّ بعادهم واستبق منهم ... فإنك سوف تُتركُ والتمنّي
إذا حاولت في أسد فُجُوراً ... فإني لستُ منك ولستَ مني
فهم دِرْعي التي استلأمتُ فيها ... الى يوم النِّسار وهم مجنّي

(النسار : يوم كان لسعد بن عمرو ، من تميم ، على هوازن) .

وهم وردوا الجِفار على تميم ... وهم أصحاب يوم عُكاظ إنّي

(الجفار : ماء لبني تميم بنجد ، كانت عنده وقعة بين تميم وبكر) .

شهدتُ لهم مواطن صادقاتٍ ... أتيْنَهم بوُدِّ الصَّدر منّي
وهم ساروا لحُجْر في خميس ... وكانوا يوم ذلك عند ظنّي

(حجر ، هو أبو امرىء القيس)

إلى أن قال :

ولو أنّي أطعتُك في أمور ... قرعتُ ندامةً من ذاك سنّي

*

ثم تعالَ الى قوله يُسفّه رأي زُرعة بن عمرو ، وكان لقي النابغة في عكاظ وطلب إليه

ناصحاً أن يشير على قومه أن ينفضوا يدهم من حلف بني أسد . ولما لم يستمع إليه النابغة توعده زُرعة . فقال النابغة يرد عليه إيعاده ، ويذكر بالفضل حلفاءه :

نُبئت زرعة والسفاهة كاسمها ... يُهدي إليَّ غرائب الأشعار
فخلفتُ يا زُرع بن عمرو أنني ... مما يشق على العدوّ ضراري

(ضراري ، أي دنوي منهم ولحاقي بهم)

أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني ... تحت العَجاج فما شققت غُباري
إنّا اقتسمنا خُطّتَينا بيننا ... فحملتُ برّة واحتملتَ فجار
فلتأتينّك قصائد وليدفعن ... جيش إليك قوادمَ الأكوار

(يتوعده بالغارة)

رهط ابن كُوز مُحقبي أدراعهم ... فيهم ورهطُ ربيعة بن حُذار

(ابن كوز ، من بني مالك بن ثعلبة . محقبي أدراعهم ، أي جاعليها كالحقائب معدة ، وربيعة بن حذار ، من بني سعد)

ورهط حرّاب وقدٍ سورةٌ ... في المجد ليس غرابها بمطار

(حراب وقد : رجلان من أسد . ليس غرابها بمطار ، أي إن فيها ما يمسك الغربان عن أن تنصرف عنها ، لإثخانهم في أعدائهم فالغربان في ركابهم لانتظارهم لوفرة ما تطعمه من جثث القتلى)

وبنو قُعين لا محالة أنهم ... آتوك غيرَ مقلّمي الأظفار

(بنو قعين : من بني أسد)

سَهكين من صدأ الحديد كأنهم ... تحت السَّنَوّر جِنةُ البقّار

(سهكين : بهم رائحة صدأ الحديد لطول لبسهم الدروع . والسنور : السلاح التام . والبقار : موضع زعمت العرب أنه كثير الجن)

والغاضريون الذين تحمّلوا ... بلوائهم سيراً لدار قَرار

(الغاضريون : من بني غاضرة بن مالك ، من أسد . ولدار قرار ، أي للثبات لا للهرب)

تمشي بهم أُدُم كأنّ رحالها ... عَلَق هُريق على مُتُون صُوَار

(الادم : الابل العتاق . والعلق : الدم . والصوار : القطيع من بقر الوحش)

جمعاً يظلّ به الفضاء معضّلاً ... يدع الإكامَ كأنهنّ صحاري

حولي بنو دُودان لا يعصُوني وبنو بغيض كلهم أنصاري

(بنو دودان : من أسد . وبنو بغيض ، يريد بني ذبيان) .

* * *

فأنت ترى في هذا القدر ما يغنيك عن غيره ، ويدلك على أن النابغة لم يبعد عن حرب داحس والغبراء ، وأنه عاش لجانب منها رأى في حفظه حفظاً لدعامة قوية وسَنَد شديد يكفلان لقومه الوقوف في وجوه عبس . فنصب نفسه للذود عن هذا الحلف ، ووقف يرد على المغرضين ، ويفند مزاعم المبطلين ، وراح يشفع لأسراهم لدى الغساسنة حين وجد الفرصة لذلك مواتية .

ونريد أن نقول : إن رحلته إلى الشام لم يكن هذا مبعثها ، فقد عرفت مما سقنا إليك بواعثها . ولكن حَسْب الرجل أنه لم ينس إلى حظه حظًا أسمى وأشرف لآله وعشيرته ، فأدّاه على وجهه ، لم يدّخر وسعاً ولم يألُ جهداً .

يُحكى أنه ركب إلى الحارث بن أبي شمر في شأن أسرى بني أسد وبني فزارة . فأجابه الحارث إلى ما طلب وخلى عنهم .

وكان حصن بن حذيفة الفزاري أصاب في غسان قبل ذلك بعام . فقال الحارث للنابغة : ما رمى بني أسد إلاّ حصن ، وقد بلغني أنه لا يزال يجمع علينا الجموع . فقال له النابغة : أبيت اللعن ! إن الذي بلغك باطل . وقال في ذلك :

إني كأني لدى النعمان خبّره بعضُ الأوُدّ حديثاً غير مكذوبِ
بأن حصناً وحيًّا من بني أسد قاموا فقالوا حِمانا غير مقروب
ضلّت حلومُهم عنهم وغرّهمُ سَنُّ المُعيديّ في رَعْيي وتعْزيبِ

(السن : حسن القيام على المال والماشية . والمعيدي ، مصغر منسوب إلى معد . والتعزيب : أن تكون الابل في المرعى لا تراح الى أهلها)

إلى أن قال : وما بحصن نُعاس إذ تؤرّقه أصوات حيّ على الأمرار محروبِ

(الامرار : مياه في بلاد بني أسد . والمحروب : الذي سلب ماله) .

ظلت أقاطيع أنعام مؤبّلة لدى صَليب على الزوراء منصوبِ

فإذ وُقيت بحمد الله شرَّتها فانجي فزارَ الى الأطواد فاللوبِ
ولا تلاقي كما لاقت بنو أسد فقد أصابتهمُ منها بشُؤْبوب
لم يبق غيرُ طريد غير مُنفلت ومُوثَق في حبال القدِّ مَسلوب
أو حُرَّة كمهاة الرَّملِ قد كُبلت فوق المعاصم منها والعراقيب
تدعوقُعيناً وقد عضَّ الحديد بها عَضَّ الثِّقاف على صُمِّ الأنابيب

(قعين : بطن من أسد)

مستبشرين قد آلَمُوا في ديارهمُ دُعاء سُوع ودُعميٍّ وأيوب

(سوع ودعمي وأيوب : من غسان)

هذا بلاء النابغة عن قومه في هذه ، ولا يضيره أنه لم يسلك فيها مسلك زهير ، فلكل مذهبه في الحياة . فلعلَّ النابغة كان يرى أن ينتصف قومه من أعدائه بالسيف ، فذهب يعينهم وينفخ في روح أحلافهم ، ويحيط ذلك بسياج تألفت حلقاته من : (١) رده مزاعم الخصوم (٢) وسعيه في الشفاعة عنهم لدى الملوك (٣) والإشادة بمآثرهم وتعداد مناقبهم .

على حين رأى زهير أن في الصلح حقناً للدماء وكبتاً للنزوات .

فالنابغة صاحب رأي لا يزال عليه الكثير . وان الضربة القاصمة تضمن في ظلها سلماً ، وإن كان مصنوعاً ، دهراً طويلاً . وزهير صاحب رأي يؤمن به مَن على حكمته وفلسفته ، وأن الصلح إذا أقيم على دعائم من الرضى المتبادل ، والصفاء المشترك ، كتب للسلم البقاء الى الأبد .

ذاك عندي هو الذي جعل الرجلين كلاًّ الى سبيل . وما أظن النابغة على تقصير حين لم يلج موالج زهير ويذهب مذهبه . هذا وقد رأينا له في هذا الميدان كلمات ، ولكنها من لون آخر .

وقد تكون تلك الصلة التي مكنت للنابغة في بلاط الملوك ، وما ورثه عن آله من نزوع الى البطش ، هما اللذان طبعاه بهذا الطابع .

إذ مع الملوك الطمع في العون . ومن تلك الطبيعة الموروثة ما يقوّي هذا الطمع ويزكيه

غير أنهم قالوا إن النابغة دان للبلاط الغساني بأكثر مما دان به لذويه . وحكوا أن النعمان بن الحارث حمى « ذا أقر » فاحتماه الناس وتربعته بنو ذبيان ، فحذرهم النابغة بطش الملك . فعيروه خوفه النعمان . وقالوا رعديد ممالئ . فقال النابغة :

لقد نهيت بني ذبيان عن أقر ... وعن تربعهم في كل أصفار
وقلت يا قوم إن الليث منقبض ... على براثنه لوثبة الضاري
إما عصيت فإني غير منفلت ... مني الاصاب بجنبا حرة النار

(الاصاب : جمع لصب : وهو الشعب الضيق من الجبل . وحرة النار : لبي مرة)

وعيرتني بنو ذبيان خشيته ... وهل عليّ بأن أخشاك من عار

وفي هذا الاتهام غلو وإسراف . فالرجل حريص على أن تجري الأمور هوناً ، وعلى ألا يمتحن قومه بالغساسنة ، فيضموا الى أعدائهم عدواً أشد وأنكى ، والأمر ليس معه ما يضير .

ذلك رأي يعضده ما كان من النابغة مع النعمان حين أراد أن يغزو بني حُصَن بن حزام من حلفاء بني ذبيان ، فنهاه النابغة وحذّره المغبة ، فأبى عليه . فأرسل النابغة يخبر قومه ويطلب إليهم أن يعينوا بني حُصَن ويمدوهم . ففعلوا وهزموا غسان . وفي ذلك يقول النابغة :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته ... يريد بني حُصَن ببرقة صادر
تجنب بني حُصَن فإن لقاءهم ... كريه وإن لم تأت إلا بصابر
هم منعوا وادي القرى من عدوهم ... بجمع كمثل البحر للعدو المكاثر

فالنابغة ليس عندما رموه به ، ولكنه يريد لأهله الأمن فيما لا ضير عليهم فيه ، حتى اذا ما رأى الخطب يلم بساحتهم كان لهم نعم الرأي والمشير .

غير أنه من الحق أن نذكر أن هذه الصلة — أي صلة النابغة بهذا البلاط وذاك — كانت لشيء غير ما تحدثنا فيه .

فالنابغة — كما يقولون — أول من كسب بالشعر ، وأنه ذاق طعم الصلات والمنح ، ورأى مقامه في البلاطين ، مشفعاً مجاباً على حد قوله :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم ... أشفع في أموالهم وأقرب

فزاده هذا وذاك حرصاً على حرص في التمسك بأهداب هذا اللون من الحياة وقد سلك من أجل هذا المزيدِ من الحرص غيرَ الجَدَد ، فلم يأمن بعض العثرات . فأسرف النابغة في مديحه ، لمكان هذا الإسراف في الحرص من نفسه . تحسُّ شيئاً من هذا في مثل قوله :

فتلك تُبلغني النعمان إنّ له ... فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعدِ
ولا أرى فاعلاً في الناس يُشبهه ... ولا أُحاشي من الأقوام عن أحد
إلاّ سليمانَ إذ قال الإلهُ له ... قُم في البرية فاحدُدْها عن الفَند
وخَيِّس الجنَّ إني قد أذنتُ لهم ... يبْنون تدْمر بالصُّفّاح والعمد
فمن أطاعك فانفعه بطاعته ... كما أطاعك وادْلُله على الرُّشد
ومن عصاك فعاقبْه مُعاقبة ... تنهي الظلومَ ولا تقعد على ضَمد

(الضمد : الحقد والغيظ)

وأسرف في الاعتذار، لمكان هذا الإسراف في الحرص من نفسه ، وذلك كما في قوله :

أُنبئت أن أبا قابوس أوعدني ... ولا قرار على زأر من الأسد
مهلاً فداءٌ لك الأقوام كلهم ... وما أُثمِّر من مالٍ ومن ولد

وكشف عن طمعه في الأصْفاد وتحرّقه للعطايا في مثل قوله :

هذا الثناء فإن تسمع به حسناً ... فلم أعرِّض أبيت اللعن بالصفد

لهذا انزلق النابغة ولم يمسك عليه لسانَه فيصرّفه فيما يحفظ له ما يريد مع أنفة لا تقطع الصلة ، ورفعة لا تسد عليه باب المطلب .

ولكنه الحرص يذلُّ أعناق الرجال . هذا ما نؤمن به ولا يرجعنا عنه ما يُعتذر به من أن الإسراف في المدح كان لإسراف الممدوح في البذل ، وأن الإسراف في الاعتذار كان لإسراف النابغة في الوفاء ، وأنه لو سكت على ما رُمي به عند النعمان مما قُذف به في شأن « المتجردة » كان هذا منه تسليماً بما قيل ، ثم إن من ورائه أعداء شامتين ، والشماتة تقضُّ المضاجع ، وتحمِّل المشموت به الفوادح ؛ وان الالماع الى العطية كانت تتمة لشكر أيادي المعطي عنده .

قد يكون لهذه شيء ولكنه لايدفع كل شيء . ولو أن شاعرنا خلّص نفسه من هذه الشوائب لاستقامت له رسالته واضحة ، وما وجد بعضُ قومه الى النَّيل منه سبيلاً . ولفرّغ جهده كله للواجب الذي حمله على عاتقه . ولكنهما المال والجاه وما النفس بغالبة سلطانهما إلاّ على جهد ومعاناة . وهي إن غلبت ملكت مقود الجاه والعزة ، ولكن من سبيل لا ضَيرَ معها عليها .

فهذا اللسان النابغي ، والحصف الذي عرفته عكاظ ، كانا يَضمنان لربهما رسالةً خالصة لاتشوبها هنات ولا يلحقها لوم . ولوجد الآذان أدنى الى الأخذ عنه ، والقلوب أدعى لما يقول .

فآفة الإصلاح أن يُظن بالناهضين به الظنون ، وتعلق بأردانهم الريب ، هنالك تلقى الآذان صمًّا ، والقلوب غُلفاً ، والجموع الى انفضاض ، والدعوة الى زوال .

زهير بن أبي سلمى

في تلك الحقبة الصاخبة ، وبين الفتن الآشبة ، والمعارك الناشبة ، عاش زهير . فقد أظله عصر النابغة ، ومرَّ بك حديثه ، فصلّيه زهير ، ولم يكن منه ببعيد . فالنابغة قضى في نحو سنة ٦٠٤ وبعده بنحو سبع سنين ثوى زهير .

وفي غطفان ، قبيل النابغة ، نشأ زهير ، فكان منهم أخواله وأخوال أبيه . فصلته بهم قديمة . أقام بينهم أبوه من قبله ، وغزا معهم طيئاً ، وعادوا عنهم بنعَم وأموال لم يخصّوه منها بشيء ، فمضى عنهم بأمّه إلى قبيلة مزينة . ثم عاد مع مُزينة حين همّوا بغطفان ، ولكنه ما لبث أن انفصل عنهم ، واستقرَّ به المقام في ربوع غطفان .

وفي حِجر بَشامة بن عمرو الغطفاني شبَّ زهير . فكفله هذا الخال ، بعد أن خلفه أبوه صغيراً .

وأصهر زهير إلى غطفان واتصلت أسبابه بأسبابهم ، وكاد بعضهم يعدُّه في غطفان ، كما كادت عروته بأذينة تنفصم لولا باقية من نسب كانت لا تزال تذكره بآبائه .

عرف زهير لغطفان أكثر مما عرف مزينة . ففي ديارهم شبَّ وترعرع ، وفي ثراء خاله بشامة تقلب ، وبلسانه تأدَّب .

تلمح ذلك العرفان للجميل في قوله لبني تميم ، وبلغه عنهم أنهم يريدون غزو غطفان :

ألا أبلغ لديك بني تميم وقد يأتيك بالنصح الظَّنونُ

(الظنون : الذي لا يوثق بما عنده ولا يكاد يصدق في خبر)

بأن بيوتنا بمحل حَجْر بكل قَرارة منها تكون

(حجر : في شق الحجاز . والقرارة : مستقر الماء في الوادي)

الى قَلَهى تكون الدار منّا إلى أكناف دومة فالحَجُون

(قلهى : موضع . والحجون : موضع بمكة . ودومة : موضع)

بأودية أسافلهنَّ رَوْضٌ وأعلاها إذا خفنا حُصُون
نَحلٌ سهولَها فإذا فَزِعنا جرى منهنَّ بالآصال عُون

(عون : أي خيل)

بكل طُرَّالة وأقبَّ نَهْدٍ مَراكلُها من التَّعداء جُون

(الأقب : الضامر البطن . والنهد : الضخم . والتعداء : العدو . والمراكل : حيث يركل الفارس برجله . وجون : سود من العرق والضرب بالرجل)

إلى أن قال :

فحلِّي في ديارك إنَّ قوماً متى يدعوا ديارهمُ يهونوا

*

كما تتبيّنه في قوله لبني سليم ، وبلغه عنهم ما بلغه عن بني تميم :

رأيت بني آل امرىء القيس أصفقوا علينا وقالوا إننا نحن أكثرُ

(أصفقوا علينا : اجتمعوا علينا . وبنو امرىء القيس : هوازن وسليم)

سُلَيم بن منصور وأفناه عامر وسعد بن بكر والنُّصور وأعصُرُ

(النصور : بنو نصر من هوازن . وسعد بن بكر ، من هوازن . وأعصر ، أبو غني وبامله)

خذوا حظَّكم يا آلَ عِكْرِم واذكروا أواصرنا والرَّحْم بالغيب تُذكر
وإنا وإياكم إلى ما نسومكم لمثلان أو أنتم الى الصلح أفقرُ
إذا ما سمعنا صارخاً معجتْ بنا إلى صوته وُرق المراكل ضُمَّرُ

(معجت : مرت مرًّا سهلا . وورق : جمع أورق ، وهو ما كان لونه لون الرماد)

على رِسْلكم إنا سنُعدي وراءكم فتمنَعكم أرماحنا أو ستُعْذر

(ستعذر . يعني الرماح ، أي سيكون منها ما تعذرون فيه)

وإلاَّ فإنا بالشريَّة فالِّلوى نُعقِّر أُمَّات الرِّباع ونَيْسر

(نيسر ، من الميسر والضرب بالقداح)

* * *

ويكاد يلفتنا هذا عن أن نُبصرك بالعصر ونزجي لك عنه طرفاً ، بل يكاد هذا الحديث يكون مدخلنا الى ما نريد . ففيه الدليل على تحفُّز موصول ، وأهبة لا تزول ،

لم يُغمد معها للقوم سيف، ولم تُعقد لهم حبوة، ولم تُلق عنهم شكة.

والى داحس والغبراء، أم الأربعين، كانت غارات هنا وهناك بين قبائل وشعوب، ومع هذه وتلك شاع ما يشيع عادة مع الحروب من تحوّل وتحدّر، وظهر العابثون العائثون فاستُبيحت حُرمات، وامتدت الأيدي للنهب، وأكثر الناس الفساد في الأرض، حين وجدوا الفرصة مواتية، والسلطان عنهم في شغل.

* * *

ذاك عصر ينشئ أحد شاعرين: شاعر يحمل نفساً قُدّست من تلك النار المستعرة، له هنا ذَحل وهناك ثأر، يرى الحُسكم للسيف، والعزة في أن تُكتب الغلبة لقومه؛ فهو للحرب يذكي أوارها، وينفخ في كِيرها، ويُسعين عليها. وكذلك كان النابغة؛ وكان من قومه في الوسط والشرف، فيه مثلُ أنفتهم، وله كحميّتهم، ويودّ بجدع الأنف أن يُكتب لهم النصر، ومعه عزّ الأبد. فعاش لذلك، على ما بسطنا لك قبلُ في حياته.

وشاعر أقذته المنافرات، وفزّعته المشاحنات، وبلبلت حسه الخصومات، وحَزنه ما آب اليه الناس وما انحطت اليه الصلات، ولم يكن له الى ذلك قصدٌ الى الثأر، ولا هو من غواة الحرب ودعاتها.

وكذلك كان زهير. بل كان فوق هذا ليس من غطفان بالمحل الذي كان به النابغة. فهذا دمٌ مُزني في وعاء غطفاني، والنابغة من غطفان دماً ووعاء.

فزهير حين تراه لا يجنح للحرب، فرجع الأمر في ذلك الى تلك النشأة التي أبعدته عن أهله فعاش في غطفان بهواه، وقلبُه مع مزينة.

وغطفان، وإن أنزلته بينها بالمحل المُكرم، فهي لم تنس مُزنيّته، ولستُ أدلّك على غير ما ذكرتُ لك قبلُ مثلاً، من حرمان غطفان أبا سلمى حقّه، فيما غنمه معهم من طيء.

هذه كانت صلة زهير بغطفان، ولم تكن مزينة بالجاه المسموع والصوت البعيد. ولم يَشغلها ما شغل غطفان، ولم تَعش لما عاشت له.

أتاحت تلك الحياة لعقل زُهير أن يُهيمن، وضارّه ما يضار كلّ حكيم يَشهد ما شهد

من فوضى واضطراب ، فيرجو للناس أمناً وسلاماً ، ترجع فيه الأمور إلى وازع نفسي يهديهم ، وحاكم يسوسهم وينهاهم .

أجل ، رُزق زهير هذه النفس العفة ، ومالت به الأيام هذا الميل ، وعرف أن هناك خيراً يُستحب ، وشراً يُجتنب .

هجا مرة آل حصن بقصيدته التي يقول فيها :

وما أدري وسوف إخال أدري ... أقومٌ آل حِصْن أم نِساء
فإن تكن النساء مُخَبَّآتٍ ... فحُقَّ لكل مُحصنةٍ هِداء

(أي إن قالوا إن النساء المخبآت في الخدور فينبغي أن يزوجن اداً)

ثم عرف بعد أنه لم يكن منصفاً حين فعل . فكان يقول : ما خرجت في ليلة ظلماء ، إلا خشيت أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم .

*

وغاضبته زوجه فأخذ يعاتبها في أسلوب الناصح ، ويبصّرها ببواطن الأمور في رفق الفيلسوف ، وهوادة الحكيم :

فيم لحَتْ إنَّ لومَها ذُعُرُ ... أحيَيتِ لوماً كأنه الإبَرُ
حتى إذا أدخلت ملامتها ... من تحت جلدي ولا يُرى أثر
قلت لها يا أرْبعي أنُل لك في ... أشياء عندي من علمها خبر
قد يُقبل المال بعد حين على المرء وحيناً لهُ لكه دُبُر
والمال ما خَوَّل الإله فلا ... بُدَّ له أن يحوزه قَدَر
والجَدّ من خير ما أعانك أو ... صُلْت به والجدود تُرْتصر
قد يقتني المرء بعد عَيْلته تعيل بعد الغنى وتجتبر

(يقتني : يجمع : ويجتبر : يستغني) .

والإثمُ من شر ما يُصال به ... والبرُّ كالغيث نبتُه أمِرُ

(أمر : كثير) .

قد أشهد الشارب المعذَّل لا ... معروفه مُنكر ولا حَصِر
في فتية لبِّني المآزر لا ... يَنْسون أحلامهم إذا سكروا

يشوون للضيف والعفاة ويو فون قضاء إذا هم نذروا

*

وبمثل هذا من ضبط النفس ولزوم جانب الحلم يقول لها :

وقالت أم كعب لا تزرنا فلا والله ما لك من مزار
رأيتك عبتني وصددت عني فكيف رأيت عرضي واصطباري
فلم أفسد بنيك ولم أقرب إليك من الملمات الكبار
أقيمي أم كعب واستقري فإنك ما نزلت بها بدار

ولا ننس أن زهيراً نزا النزوة أو النزوتين ، عدا فيهما طوره ، وفارق المعروف من أمره . ذلك لما لم يتبين نهجه ، ولم يعرج إليه عرجه . من ذلك قوله يهجو عوف بن شماس :

من يتجرم لي المناطق ظالماً فيجر إلى شأوٍ بعيدٍ ويسبح

(يتجرم : يتجنى . والمناطق ، أي كلمات السوء) .

يكن كالحبارى إن أصيبت فمثلها أصيب وإن تفلت من الصقر تسلح
كعوف بن شماس يرشح شعره إليّ أسدّي يا مَنِيُّ وأسجحي

(يرشح : يهيء . وأسدى ، من السداد . وأسجحي : ارفقي)

*

وكقوله ، وقد أخش على الحارث بن ورقاء الصيداوي ، حين عدا في بني صيداء واستاقوا إبلاً لزهير ومعها غلامه يسار :

تعلم أن شر الناس حيٌّ ينادي في شعارهم يسارُ

(الشعار : العلامة . يريد أن يساراً صار عيباً عليهم يعيرون به)

ولولا عسبه لرددتموه وشر منيحة أيرٌ مُعار

(عسبه : نكاحه . والمنيحة : العارية ، ومعار ، من الإعارة) .

إذا جمحت نساؤكم إليه أشظّ كأنه مَسد مُغار

(جمحت : مالت . أشظ : أنعظ . والمسد : الحبل ، والمغار : المفتول) .

*

قال زهير في بني صيداء ، غير هذا ، وكان محروباً لا يملك غير لسان يخوّف به وينذر . وأودّ ألاّ تفوتني الإشارة إلى شيء سبق فيه القولُ ، وهو أن زهيراً لم يجد غطفان له ، فيما يحزبه من أمر ، كما لم تجد غطفان زهيراً منها فتقرض له عليها ما يُفرض لغطفاني ،

وقدّمت لذلك مثلاً ما كان منها لأبي سُلمى . وأحب أن أضُم إلى سابقٍ لاحقاً فألفتك إلى حديث زهير مع بني الصيداء ، وإغفال غطفان أمره ، وأن زهيراً أحسّ هذا فجعل المردّ إلى شعره يحمله النَّيل من عدوّه ، غيرَ راجع في ذلك الى عشيرٍ من خَلْفه يلوّح بهم ، ويخوّف بهبَّتهم له .

* * *

كان لزاماً على زهير أن يهيء الناسَ للسلم ، ويمكّن للفضيلة في نفوسهم ، ويجعل للخير طريقَه الى قلوبهم . فقد عرف مع القوة الغدر ، ولن تبعث الحربَ إلاّ حرباً . رأى أباه ظُلم حقه ، ولو قد شاءه لكان مع غطفان في حرب ، ولمّا لم يملك عَدَّها حمل الذلة صاغراً . ورأى نفسه مع من يُغار عليهم فتُساق إبله ويؤسر غلامه ، ولو أنّ الأمور إلى أمْن لبات قريرَ عين ، ولم يذُق مرارة العدوان عليه .

ورأى الناس حوله يجر الشر شرًّا ، ولا يقوى شر على دفع شر .

وأحس عوز الناس الى رائد يرودهم ، ومبصّر بالخير يبصّرهم ، ووازع يزعهم بالنصح والقول الجميل . وكانت جفوة غطفان الى خمول مزينة أول شيء أعدّه لتلك الوجهة وهيأه لذلك السبيل . فجعل من تلك الدعوة ركنه الذي يشتد به حين يشتد الناس بالعشائر والقبائل .

وما أن رأى الحارث بن عوف وهرم بن سنان يصلحان بين عبس وذبيان ، حتى هشّت نفسه لذلك ، وانطلق لسانه بمعلقته الخالدة يرغّب في السلم ، منددًا بالحرب وما معها من تنافر ، محبّباً في الصلح ، ذاكراً ما إليه من تواد وتعاطف ، معززاً هذا كله بألوان من الحِكم ، وفنون من القول الحكيم . وفيها يقول :

تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانَوْا ودقّوا بينهم عطرَ منشمِ

(منشم : امرأة عطارة تحالف قوم وغمسوا أيديهم في عطرها . فخرجوا للحرب فقتلوا جميعا فشاعت بها الحرب) .

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً بمال ومعروف من القول نَسلمِ

(واسع : ممكن) .

فأصبحتما منها على خير موطن بعيدَيْن فيها من عُقوق ومأثم

عظيمين في عُدْيا معدٍّ هُديتما ومن يستبح كنزاً من المجد يعظُم

*

وانظر الى قوله فيها ينفر الناس من الحرب ويذكرهم بسوء المغبة :

فلا تكتُمنَّ الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخَّر فيوضع في حساب فيُدخر ليوم الحساب أو يُعجَّل فينتقم
وما الحرب إلاَّ ما علمتم وذُقتم وما هو عنها بالحديث المرجَّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتَضرى إذا ضرَّيتموها فتضرَم
فتعركُم عرْك الرحى بثفالها وتلقحْ كشافاً ثم تنتَج فتتئم

(الثفال: جلد يجعل تحت الرحى. والمعنى انها كشافاً. اذ تحمل عليها كل عام، وذلك أردأ النتاج، والمحمود عندهم أن يحمل عليها سنة وتحم سنة . وتتئم : تأتي بتوأمين)

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عادٍ ثم تُرضع فتفطم

(أحمر عاد . عاقر الناقة)

فتُغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرًى بالعراق من قفيز ودرهم

(أي تغل لكم دما على حين تغل قرى العراق من قفيز ودرهم)

*

وأنت ترى أن نفس المصلح زهير تجري في أبياته جريان الدماء في الشرايين ، وتحس أن مقاطع البيت من خفقات القلب ، وأن إيمان الداعي قد سبق الى قلوب السامعين فدانوا له، وعرفوا أنه رسول حق وداعية صدق .

وإن كنت قد عرفت للنابغة صارفاً لفتَه عن رسالته وشغله ببلاط الحيرة يوماً والمناذرة يوماً آخر، على ما شفعنا ذلك برأي ، فاعرفْ لزهير هذا الصارف الذي شغله بهرم ابن سنان . فعنىَّ نفسه بمدائح ، لم يغْلُ فيها غلوَّ النابغة.

ولو عاش زهير ليشهد ما دار بين بعض ولد هرم وعمر بن الخطاب حين قال له عمر: أنشدني بعض مدح زهير أباك . فأنشده . فقال عمر : إن كان ليحسن فيكم القول قال : ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء . فقال : قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

أو شهد ما جرى بين بعض ولده وعمر حين قال له عمر : ما فعلت الحُلل التي كساها هرم أباك ؟ قال : أبلاها الدهر. قال: لكن الحلل التي كساها أبوك هرما لم يُبلها الدهر .

أجل لو عاش زهير ليشهد هذا وذاك ، ورَدَّ اليه الأمر، لزاد الى حِكَمه حكمة ، تصرف

الشعراء عن أن يُشغلوا إلاَّ بما للرأي والعقيدة، فهو أجدى عليهم وأبقى، وأحفظ لأسمائهم من أن تذكر في معرض الاستجداء والاستمناح.

*

وقد أجد لزهير في صلته بهرم شيئاً مما وجدته للنابغة. فقد وجدتْ يدُ هرم في الصلح بين عبس وذبيان سبيلَها الى قلب زهير، وهو الذي يقدُر المصلحين ويُكبر صنيعهم. فحرّكت بواعث الإعجاب والإعظام من نفسه، وذاق هرم حلاوة المديح على لسان شاعر الحكمة، فخفَّ له وأكبر صاحبَه، فسخت يدُه. ورأى زهيرٌ يدَ هرم اليه تطول يدَه فيما كان بين عبس وذبيان، فجرى لسانُه بشكره، والشكرُ تُوجبه النعمة.

وما ندري أكان يقوى زهير على أن يصرف هرماً عن مثل ما فعل بادىء ذي بدء ويلفته الى خير عام، أو أنه وجد في شكر تلك اليد بمثل قوله:

قد جعل المُبتغون الخير في هرم ... والسائلون الى أبوابه طرقا
إنْ تلقَ يوماً على علاّته هرماً ... تلق السماحة منه والندى خُلقا
وليس مانع ذي قُربى وذي رحم ... يوماً ولا مُعدماً من خابط ورقا

وبمثل قوله:

تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ما يثير أريحية هرم ويبسط يده للناس عامة. فيكون زهير في هذا جارياً في رسالته، مادحاً هرماً ليضمن للقاصدين والمعتفين باباً من الرزق لا يغلق دونهم رتاجه.

وأنت عن هرم لا تقف بمذكِّر، تعرف له أياديه، وقد كان من الأجواد المعدودين، اختصَّ زهيراً بنُضاره، وخصَّه زهير بأشعاره.

وفي الحق إن كانت حرب داحس والغبراء، وما جرَّت من بأساء وضرّاء، أثارت غضبة زهير للدم المراق، والنفرة والشقاق، فقد كان كرم الكريم هرم، وما حقن من دم، وكسا وأطعم، مما استخفَّ زهيراً فجعل منه عنوان موضوعٍ ثانٍ، هو السخاء، فقال زهير يدعو الناس الى كرم وجود، كما دعاهم الى سلم وعهود. ضارباً المثل بجود هرم في مثل قوله له:

إذا السنةُ الشَّهباءُ بالناس أجحفت ونال كرامَ المال في السنةِ الأكلُ
رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قَطيناً لهم حتى إذا أنبتَ البقلُ
هنالك إن يُستخولوا المال يخولوا وإن يُسألوا يُعطوا وإن ييسروا يُغلوا
على مُكثريهم حقُّ من يَعتريهم وعند المُقلين السماحة والبذل

فأنت ترى زهيراً لا يشكر يداً خُص بها، بل يشكر يداً عامة ومعروفاً جامعاً، فهو لسان المُقلين لدى المُكثرين، يكاد يَفرض لهم حقوقاً في أموالهم، ويُحرّك القلوب لعَوْنهم في غير إذلال ولا استصغار.

*

هذا ما نظنه، ولا نرانا مُبعدين أو مقلين، وهكذا كان زهير على السلم وليّاً وللسادة مَسخياً، جعل من داحس والغبراء في الأولى سبباً له، ومن جود هرم في الثانية دليله.

*

والآن فلنودّع زهيراً لنأخذ في سيرة عنترة، فهو رابع أربعة اخترناهم صورة للعصر

عنترة بن شداد

في بني عبس، وعلى فراش شدّاد بن عمرو — في الراجح من الروايات — وُلد عنترة ترضعُهُ أَمةٌ حبشية تدعى زبيبة.

ويقولون إن شدّاداً سباها في بعض خرجاته مع قومه، فأحملها عنترة. وغلبت صبغتُها صبغةَ شداد. فاستقبل عنترةُ الحياةَ بوجه كوجه أُمه أسود.

ولما قضى شدّاد منها وطَره أرسلها، فعَلِقت من غيره ببنين عُبداناً سوداً، منهم حنبل، ولم يذكر الناقلون لهم أباً مَعروفاً. غير أن سعي أخيهم عنترة في إلحاقهم بعبس، كما سيأتيك نبأ هذا بعد، يكاد يقفنا على أن هذا الأب الضالَّ عربيٌّ لا عبدٌ حبشي، وأن هذا اللون كسبه الإخْوةَ من المَعين الذي كسب عنترةُ منه سوادَه.

فعنترة الى عبس أمرُه، وُلد فيهم عبداً، ثم استلحقوه على نجابة وبلاء. وشأن العرب استعباد أولاد الإماء، فاذا أَنِسوا لهم ذِكراً ونباهة، ادّعاهم آباؤهم، ووصلوا نسبهم بنسبهم، فكانوا من القبيلة طلقاء أحراراً، لهم حقوقهم غير مقطوعة ولا ممنوعة.

وعنترة لِدةُ للنابغة وزهير، شهد عصرهما، وأنسأه الأجل أعواماً بعدهما، فعمّر الى نحو سنة ٦١٥ فيما يقولون.

وشهد كما شهدا داحس والغبراء، ورثى فيها مالك بن زهير العبسي بقوله:

فلله عينا من رأى مثل مالك ... عقيرةَ قومٍ أن جَرَى فَرَسانِ
فليتهما لم يجريا نصفَ غلوة ... وليتهما لم يُرسلا لرهان
وليتهما ماتا جميعاً ببلدة ... وأخطاها قيس فلا يُريان
لقد جلبا حيناً وحرباً عظيمة ... تبيد سراة القوم من غطفان
وكان فتى الهيجاء يحمي ذمارها ... ويضرب عند الكرّ كل بنان

غيرأنه شارك فيها بسنانه بعد لسانه ، يقول ويصول . فكان الشيخان زهير والنابغة إلى جانب غطفان ، وهو الى عبس في جانب آخر . وساقته الفتوّة مساقها ، وأقحمته مقاحمها ، فعاش بين المعارك صائلاً حتى إذا ما فَصل منها وسكن الى نفسه واتاه خاطر الشاعر فقال . فتراه إذا ما نفض اليد من إغارته على جهينة يقول :

ساوا عنا جُهينةَ كيف باتت ... تهيم من المخافة في رُباها
رأت طعني فولّت واستقلت ... وسُمر الخطّ يعمل في قفاها
وما أبقيت فيها بعد بِشْرٍ ... سوى الغربان تحجل في فلاها

ثم تسمعه يصف لك بلاءه في يوم شعب جبلة ويذكر جلده في قوله :

أرى لي كل يوم مع زماني ... عتاباً في البعاد وفي التّداني
يريد مذلتي ويدور حولي ... بجيش النائبات إذا رآني
كأني قد كبرت وشاب رأسي ... وقلّ تجلُّدي ووَهَى جناني
ألا يادهر يومي مثل أمسي ... وأعظم هيبة لمن التقاني

إلى أن يقول :

وقِرْنٌ قد تركت لدى مكرٍّ ... عليه سبائباً كالأرجوان
تركت الطير عاكفة عليه ... كما تردي الى العرس الغواني
وتمنعهنّ أن يأكلنَ منه ... حياة يد ورجل تركضان

ويتجه الى عبلة ابنة عمه يستهويها بموقفه مع الأعجام قائلاً :

سَلي يا عبلة الجبلَيْن عنّا ... وما لاقت بنو الأعجام منّا
أبدنا جمعهم لما أتونا ... تموج موا كبٌ إنساً وجنّا
ورامُوا أكلنا من غير جُوع ... فأشبعناهمُ ضرباً وطعنا

ويغير على بني الحريقة فينطلق لسانه فاخراً منددا :

حكَمٌ سيوفك في رقاب العُذّلِ ... وإذا نزلت بدار ذلٍّ فارْحلِ
وإذا الجبان نهاك يوم كريهة ... خوفاً عليك من ازدحام الجحفل
فاعرض مقالته ولا تحفل بها ... واقدم إذا حقّ اللقا في الأوّل

الى أن قال :

ولقد نكبت بني حريقة نكبة لما طعنتُ صميم قلب الأخيل
وقتلتُ فارسهم ربيعة عنوةً والهَيذبان وجابرَ بن مهلهلِ

وبمثل هذا يصف يومه مع بني ضبَّة :

عَفت الديارَ وباقيَ الأطلالِ ريحُ الصبَّا وتقلُّبُ الأحوالِ

ويقول :

وأنا المنية حين تشتجر القنا والطعن مني سابق الآجال

ويقول :

وسلي عشائر ضبَّةٍ إذ أسلمت بكرٌ حلائلها ورهط عقال

وقريب منه قوله في وقعة كانت بينهم وبين زبيد :

لقد وجدنا زبيداً غير صابرة يوم التقينا وخيل الموت تستبقُ

ومنه :

ماعبَّست حومةُ الهيجاء وجه فتىً إلاّ ووجهي إليها باسمٌ طلِقُ

وله في يوم المَصانع :

اذا كشف الزمان لك القناعا ومدَّ إليكَ صرفُ الدهر باعا

. . . . . .

وفي يوم المَصانع قد تركنا لنا بفعالنا خبراً مُشاعا
أقمنا بالذوابل سُوق حرب وصيَّرنا النفوس لها متاعا
حصاني كان دلاّل المنايا نخاض غمارها وشَرَى وباعا
وسيفي كان في الهَيجا طبيباً يداوي رأس من يشكو الصُّداعا

وله يتوعد بني شيبان :

ويلٌ لشيبان إذا صبَّحتُها وأرسلت بيضُ الظُّبا شُعاعها
وخاض رمحي في حشاها وغدا يشُكُّ مع دروعها أضلاعها

فأنت تجد بين شعر عنترة — الخالص له والمصنوع على لسانه — الكثيرَ من ذكر

هذه المواقف . وقد عرفتَ ، مما سقنا إليك قبل ، العصر واضطرابه ، وتلك الخصومات التي ملأت الأيام والأعوام عراكاً ونضالاً .

* * *

ولنا عن عنترة في هذا النضال ونصيبه منه حديث . من الرأي أن نسبقه برجعة الى الوراء قليلاً لنتمّ لك الحديث عن عبودية عنترة .

فقد علمتَ شيئاً عن عادة العرب مع أولاد الإماء ، وعلمت أنهم لا يستلحقونهم إلاّ لنجابة ونباهة ذِكر .

وكذلك كانت الحال مع عنترة . فقد ظلّ عبداً يرعى إبل أبيه صدراً من شبابه لا يُؤبه له ولا شأن له ملحوظ . حتى أغارت مغيرة على عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلاً لهم ، وعرض لهم العبسيون، وعنترة بمعزل . فسأله أبوه أن يكُرّ . فما كان جواب عنترة إلاّ أن قال : العبد لا يُحسن الكرّ ، إنما يُحسن الحِلاب والصرّ . وكان ظنُّ الأب بالابن أنه على فتوّة وقوّة ، فقال له : كرّ وأنت حرّ . فكرّ عنترة وهو يقول :

أنا الهجين عنتره كل امرئ يحمي حره .

وأبلى في يومه هذا بلاءً حسناً . فادّعاه أبوه واتصل بعبس نسبُه .

بهذا أو مثله خلف عنترة العبودية الى الحرية ، وعرفته العرب شجاعاً جلداً ، وعرفوا مكانه بين الصفوف ، شهد له بها قيس بن زهير حين وقف عنترة لتميم يوم جرت في إثر عبس وقد ولّت ، فحامى عن الناس فلم يُنصب مدبراً ، فساء قيساً ما صنع عنترة فقال : والله ما حمى الناس إلاّ ابن السوداء .

* * *

طلب الشجعانُ عنترةَ وطلبهم ، وكاد الأمر يكون خصومة بينه وبين منافسيه لا حرباً تعني القبائل والعشائر .

تلمس شيئاً من هذا فيما سُقنا لك من شعره في تلك المواقف ، وفيما سنعرض عليك منه ، فتراه يشيد بموقفه ، ويعدّد مآثره ، ثم يذكر عبساً تتمة للحديث دون إفاضة عنهم . فمن قوله يصف يوماً له :

أعاذلَ كم من يوم حرب شهدتُه له منظر بادي النواجذ كالحُ

ثم يلتفت الى قومه فيقول :

فلم أرَ حيًّا صابروا مثل صبرنا ولا كافحوا مثل الذين نكافح

ولكنه لا يلبث أن يعود الى نفسه فيقول :

إذا شئت لاقاني كميٌّ مدجَّجٌ على أعوجيٍّ بالطعان مسامح

*

ومن قوله في يوم له آخر :

ألاَ أبلغ بني العُشَراء عني علانية فقد ذهب السِّرارُ

قتلتُ سراتكم وخسلْت منكم خسيلاً مثل ما خُسِل الوبار

ثم يذكر قومه فيجمع بينه وبينهم ويقول :

ولم نقتلكمُ سرًّا ولكن علانيةً وقد سطع الغبار

*

ومن قوله أيضاً :

وقِرنٍ قد تركتُ لدى مكرٍّ عليه سابغٌ كالأرجوانِ

تركت الطيرَ عاكفة عليه كما تردي الى العرس البواني

فما أوهى مَراسُ الحرب ركني ولكن ما تقادم من زماني

ويريد أن يتم الحديث عن نفسه بإشارة الى قومه فيقول :

وقد علمت بنو عبس بأني أهش إذا دعيت الى الطعان

ونعمَ فوارس الهيجاء قومي إذا علقوا الأعنَّة بالبنان

همُ قتلوا لقيطاً وابن حُجر وأردوا حاجباً وابنيْ أبانِ

*

ولا نريد أن نشق عليك ، ولنجعل قوله في توعد النعمان آخر ما نسوق له في هذه البابة ، فتراه يبدأ بقومه فيقول :

لله درُّ بني عبس لقد نسلوا من الأكارم ما قد تنسل العربُ

ثم سرعان ما يُثنّي بنفسه فيقول :

قد كنت فيما مضى أرعى جماجمهم واليوم أحمي حماهم كلما نكبوا
اليوم تعلم يا نعمان أي فتىً يلقى أخاك الذي قد غرّه العصب

وينسى قومه فلا يعود اليهم الى آخر ما يقول :

والنقع يوم طراد الخيل يشهد لي والضرب والطعن والأقلام والكتب

* * *

هذه أمثلة من شعر عنترة في تلك المواقف . ويكاد يكون ما سقنا صورة لما لم نسُق . وانك لتقرب أن تحس ، أن الأيام أيامه ، وأن الحرب حربه ، وان الكرّ كرّه ، وان القوم من ورائه يجرون في إثره ويترسمون خطاه .

فعنترة لم يفعل مع هذه الأيام أكثر من أن يسجل لنا تلك الحوادث ، أو قل من أن يسجل لنا غدواته وروحاته ، وما فعلت كفّه ، وكم سبى وكم قتل ، في إسهاب مكرر وإطالة معاودة . ويكاد يكون ما يقال هنا يقال هناك ، مع تحوير وتغيير .

وقومه في كل ذلك لا يُذكرون إلاّ ليضيف من الفخر بهم الى الفخر بنفسه ، وإلاّ حين يذكر عنترة أنه يصف حرباً حشدت لها جموع ، لا برازاً برز له خصمان .

*

ونحب أن نعرف أن عنترة كان له من قومه شكاية ، وفيهم عتب ، جهر بذلك في غير موضع . فهو الذي يقول :

أعاتب دهراً لا يلين لناصح وأخفي الجوى في القلب والدمع فاضحي
وقومي مع الأيام عون على دمي وقد طلبوني بالقنا والصفائح

وهو القائل :

إذا فاض دمعي واستهلّ على خدي وجاذبني شوقي الى العلم السعدي
أذكّر قومي ظلمهم لي وبغيهم وقلة إنصافي على القرب والبعد
بنيت لهم بالسيف مجداً مشيداً فلما تناهى مجدهم هدموا مجدي

وهو القائل في قومه وقد خرج عنهم غضبان بماله وإخوته :

لا تقتض الدين إلاّ بالقنا الذبل ولا تحكّم سوى الأسياف في القلل

ولا تجاور لئاماً ذل جارهم وخلِّهم في عراض الدار وارتحلِ

وهو الذي توعدهم بقوله :

أظلماً وربحي ناصري وحسامي وذلاً وعزمي قائدي بزمامي
ولي بأس أ مفتول الذراعين خادر يدافع عن شباله ويحامي
وإني عزيز الجار في كل موطن وأكرم نفسي أن يهون مقامي
هجرت البيوت المشرفات وشاقني بريقُ المواضي تحت ظل قتام
سأرحل عنكم لا أزور دياركم وأقصدها في كل جنح ظلام

هذان شيئان جرَّ أحدُهما الآخر . فقوم عنترة عرفوه عبداً ، وانتبذهم هو الى رعية الإبل لا يشارك فيما يشارك فيه الأحرار ، ووجد من الحاجة اليه وسيلته إلى إنه يُعدَّ من أحرارهم فكان لها نهَّازاً ، واحتملوه هم على غير رغبة منهم ، فكانت لهم إليه لفتات أحسَّ منها عنترة الانتقاص مما نال . وبظني أن الألسنة لم تبرأ من وخزه ، والعيون لم تقف عن غمزه . وأحسَّ هو أنه لا يزال بين الناس عبداً ، وأن ما ناله كلمة لم تنزع إيماناً سكن القلوب ، وعقيدة أشربتها النفوس . فليدعه أبوه إليه ، وليتصل النسب بالنسب . ولكن الناس على دين قديم نشَّأهم على امتهان العبد وانتقاصه ، وجرَّاهم على أن يعدُّوا تلك صفة لا فكاك منها إلى يوم الدين .

هذا شيء وجده عنترة فوجد له ، وجرى لسانه به شاكياً فيما شكى ، ألم تسمع إلى قوله :

لئن أكُ أسوداً فالمسك لوني وما لسواد جلدي من دواء
ولكن تَبْعد الفحشاء عني كَبُعد الأرض من جوّ السماء

والى قوله :

تُعيِّرني العِدا بسواد جلدي وبيضُ خصائلي تمحو السوادا

ثم اليه يخاطب قومه :

يعيبون لوني بالسواد وإنما فعالهم بالخبث أسود من جلدي

وتعالَ الى قوله :

ان كنتُ في عدد العبيد فهمَّتي فوق الثريا والسماك الأعزلِ
أو أنكرت فرسان عبس نسبتي فسنان رمحي والحُسام يُقرّ لي

فأنت ترى عبساً لم تَعْدُ فيما منحت القولَ الذي لم يؤيده فعل ، وأحس عنترة معه أنه غريب عن القوم وإن كان منهم فالتفت الى نفسه ، وكان لهذا أثره في خصّه نفسه بأكثر شعره ، والإشادة بما فعلت يداه في الكثير مما قال .

وكذلك جرّته المهانة يلقاها في نادي قومه إلى أن يكون على ما وصفنا لك ، وأن يصبغ شعره بهذه الصبغة .

وكان لهذا النزاع بين عنترة وقومه بقية ، فقد كان له إخوة ، شأنهم من شأنه ، الأب من جنس الأب والفراش هو الفراش . وكان بقاؤهم على العبودية شيئاً يقضُّ عليه مضجعه ويهيج حزنه . وما لهم بلاءٌ كبلائه يستلحقون به ، وماله هو صبر على ما يلحقه ببقائهم تحت سمعه وبصره يسامون ما تسام العبيد . وكأنه فطن الى أن حريته ينقصها أن يرى الى جانبه إخوته أحراراً ، فيقطع بذلك دابر المعرّة ، ويوصد في وجوه عائبيه الباب الى عيبه .

فاحتال لذلك بأن أوحى الى خير إخوته عنده ، وكان يدعى حنبلا ، أن يروي مهره من اللبن ، وان يمرّ به عليه عشاءً في نادي قومه . فاذا ما قال له عنترة : ما بال مهركم مهزولاً ضامراً ؟ أهوى حنبل بالسيف الى بطن المهر فضربه . فيظهر اللبن .

ولمّا كان ما أراد عنترة قال :

أبني زبيبة ما لمهركمُ متخدراً وبطونكم عُجْرُ
ألكم بإيغال الوليد على إثر الشياه بشدة حبْرُ

وينقل الرواة أن الأمور لم تجر إلى ما رجا وأمّل ، فاستلاطهم نفر ونفاهم نفر .

* * *

وبعد هذا يجيء حديث عبلة ، ابنة العم التي شغف بها عنترة وأكثر من القول فيها ، وهل ترى القوم حبسوها عنه ومطلوه في أمرها إلاّ لهذا الذي صحب عنترة من المهد ، ولم يبرئه منه ادعاءٌ عن فضل وبلاء .

واتجه عنترة الى عبلة يحدّثها عن فتوته وإثخانه في الأعداء . وقديماً استهوت الغواني شجاعة الشجعان . فقال لها :

فلو أن عينيك يوم اللقاء ترى موقفي زدت لي في المحبه
وأفرح بالسيف تحت الغبار إذا ما ضربتَ به ألف ضربه
وتشهد لي الخيل يوم الطعان بأني أفرّقها ألف سربه

ثم يدرك أن هناك شيئاً آخر غير هذا يحسن به أن يجمّله في عينها ، فيقول :

وإن كان جلدي يرى أسوداً فلي في المكارم عزٌّ ورتبه

ويعود إليها ببلائه في يوم له مع بني عامر فيقول :

سلي يا عبل عنا يوم زرنا قبائل عامر وبني كلاب
وكم من فارس خلّيتُ مُلقىً خضيب الراحتين بلا خضاب
يحرّك رجلَه رعباً وفيه سنان الرمح يلمع كالشهاب

وكأن عبلة كانت على دين قومها ، فلا يستجيب قلبها لتلك الصرخات ، ويرجع بها عنه شعور بالنقيصة تلوث أردانها إن وصلت حبلها بحبلها ، فتغاظ له ، وتأخذ عنترة العزة فيقول:

سلا القلبُ عما كان يهوي ويطلبُ وأصبح لا يشكو ولا يتعتبُ
صحا بعد سكرٍ وانتحى بعد ذلّةٍ وقلب الذي يهوى العلا يتقلب
الى كم أُداري من تريد مذلّتي وأبذل جهدي في رضاها وتغضب
عُبَيْلة أيامُ الجمال قليلة لها دولةٌ معلومةٌ ثم تذهب
فلا تحسبي أني على البعد نادمٌ ولا القلب في نار الغرام يعذّب
وقد قلت إني قد سلوت عن الهوى ومن كان مثلي لا يقول ويكذب
هجرتك فامضي حيث شئت وجربي من الناس غيري فاللبيب يجرّبُ

والحديث عن عبلة يطول . وهمّنا منه هو أن القوم جعلوا من هوى عنترة بها إحقاقاً لما يريدونه عليه . فأرسلوه على الأعداء غازياً ، وحملوه عبء الدفاع والذود عن حماهم ، وكانوا بعد هذا بين إقدام وإحجام في أن يزفوها اليه . فقد وُلدت على فراش غير الفراش الذي ولد عليه . ولهذا قدره وشأنه عندهم . فأثقلوا عليه وعنّوه بطلب العصافير مهراً لها.

* * *

شيء واحد كان لعنترة أن يلتفت إليه ويخصه بالقول ، هو ذلك العنت الذي أرهقه به

قوم وآذوه ، وتلك الروح التي فرّقت بين الناس في المهاد فجعلتهم عبيداً وأحراراً ، وذلك الظن بأن العبد إلى عزلة لا يقرب مواطىء أقدام سادته .

لقد ذاق عنترة من صنوف الإذلال كثيراً ، ذاق ذلك في نفسه ، وذاقه في إخوته ، وذاقه في صلته بعبلة . فماذا فعل! وبأي لون من القول ذاد عن تلك الكرامة التي هدرها قومه .

لا تجد الرجل إلاّ ضعيفاً مستخذياً يرى رأي القوم فيه ، ويحاول في غير توفيق أن يجمل من شجاعته وإقدامه ما يمحو عنه ما اتصل به عن أُمه ، فتراه يقول :

إني امرؤ من خير عبس منصبا شطرى وأحمي سائري بالمُنصلِ (١)
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحمت أُلفيت خيراً من مُعمٍّ مُخولِ

* * *

فأين لعنترة ـ وكان له إلى لسانه يدٌ باطشة — شعره في الدفاع عن العبودية وحمل لواء المساواة بين الأفراد ؟

ومن يحمل لواء المساواة بين الأجناس إذا لم يحمله أمثال عنترة ؟ بل عنترة به أوْلى .

هذه هي رسالة عنترة التي فرط فيها .

أما قوله في تلك المعارك الناشبة ، التي سيق اليها سوقاً ، والتي كان فيها حرباً مع من لا يحملون له ولاء ، ولا يكادون يقرُّون له بينهم نسباً ، فما هو بشيء .

وإن عددنا له بعضاً مما كان عليه ، فأين غيره ، وقد كان مجال القول فيه فسيحاً ، والفرصة مواتية ، والخطب خطبه ، في نفسه وأُمه وإخوته ، فحمَله همًّا لم يَدَعْه . وكأني به قد مضى حين رماه ابن جابر النبهاني فقطع مطاه ، فقال عنترة يخاطب مَنْ حسبهم قومه :

وإن ابن سلمى عنده فاعلموا دمي وهيهات لا يرجى ابن سلمى ولا دمي

*

تُرى لو بعث عنترة ورأى كيف نامت عبس عن الأخذ بثأره ، وان ابن جابر عاش لا يخشى واتراً ، أما كان يرى أنّما لم نظلمه ، وأنه ظلم نفسه حين ترك ما كان له إلى غيره ؟

---

(١) يقول : إن أباه من اكرم عبس ، واما عن أمه ، ففي شجاعته ما يعوض عليه ما فقده فيها .

حَسَّان

ابن ثابت

خير ما نقدِّم به لحسان بن ثابت كلمة الأصمعي : « الشعر نَكِدٌ بابه الشرُّ . فإذا دخل في الخير ضعُف» . هذا حسّان بن ثابت خل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره » ؛ ثم كلمة له خرى من هذه وإليها : « شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ، فقُطع متنه في الإسلام » .

ما نريد بهذا أن نعرف أين أجاد حسان وأين قصَّر ، فتلك دراسة أخرى ؛ وما بنا أن نلتفت عما بدأنا فيه إلى رأي بيَّنا تخلّفه عن الغاية . ولكن عَنَانا أن نعرض لمثل هذا الرأي فنذكر به كيف شُغل الناس بحسّان . فرأيناهم يقدرونه على قوله لا على رأيه ، ويستمعون إليه استماعهم إلى الزامر ينفخ في قصبته ؛ أما أنه شاعر يحمل إلى القول الرأيَ والفكرة فما بهم إليه النفاتة .

*

وقد أتاك أنَّ « حساناً » ضمَّه عهدان ، عهد يسبق الإسلام ، وعهدٌ يبدأ به . وقد تحب أن نصلك بنسب حسّان وعشيرته قبل أن نحدثك حديثه هنا وهناك .

فهو ابن ثابت بن المنذر بن حرام ، وحرام من النجار ، والنجار من الخزرج .

وأمه الفريعة بنت خالد بن قيس ، خزرجية .

وفي يثرب وُلد ، وفيها نشأ وشبَّ ، يغذوه جاه أبيه وثراؤه .

واذا ذُكرت الخزرج ذكرت أوس ، فقد شهدت لها يثرب حقبة استشرى فيها الشر وانطوت فيها الصدور على ترات ، والنفوس على حسائك ، والقلوب على بغضاء .

وكان مع الأوس شاعرهم قيس بن الخطيم ، وما هو بأوسيٍّ إن لم ينل من الخزرج بلسانه ، وينبري لهم ببيانه . وما رجت الخزرج حساناً ، إلاَّ ليدفع عنها ويذود دونها .

فوقف حسان لقيس يهجوه ويهوّن من شأنه ، علّه أن يذل ويخزى ، فيكتب حسان لقومه نصراً حيث مجاله ومصاله .

نذكر له من هذا قوله :

لعمر أبيك الخير يا «شعث» ما نبا ... عليّ لساني في الخطوب ولا يدي

(شعث ، يريد : شعثاء ، اسم المرأة التي كان ينتسب بها)

لساني وسيفي صارمان كلاهما ... ويبلغ ما لا يبلغ السيفُ مِذْوَدي

(المذود : اللسان)

وإن أكُ ذا مالٍ كثير أجد به ... وإن يعتصر عودي على الجهد يُحمدِ

فلا المالُ ينسيني حياتي وحفظتي ... ولا وقعاتُ الدهر يَفلُلن مبردي

وإني لمعط ما وجدتُ وقائل ... لموقد ناري ليلة الريح : أوقدِ

الى أن يقول :

فلا تعْجلنْ يا قيس وأربعْ فإنما ... قصاراك أن تلقى بكل مهنَّد

(اربع : قف . قصاراك : جهدك)

حسام وأرماح بأيدي أعزةٍ ... متى ترهم يابن الخطيم تبلّد

ليوث لها الأشبال تحمي عرينها ... مداعيس بالخطيِّ في كل مشهد

(مداعيس : طاعنون)

فقد ذاقت الأوس القتال وطرّدت ... وأنت لدى الكنّات كل مطرَّد

(الكنات : السفائف . يشير الى جبنه)

فناغِ لدى الأبواب حوراً نواعماً ... وكحِّلْ ما قيك الحسان بإثمد

تفتكم عن العلياء أمٌّ لئيمة ... وزندٌ متى تقدح به النار يَصلد

(يصلد : يصوت ولا يورى)

كما نذكر له قوله :

ما بال عيني دموعها تكفُ ... من ذكر خود شطت بها قذفُ

فغادروني والنفس غالبها ... ما شفّها والهموم تعتكف

دع ذا وعدَّ القريض في نقر يدعون مجدي ومدحتي شرف
إن أدعُ في المجد ألقهم سلفاً أهل فعال يبدوا إذا وُصفوا

وفيه يقول :

أو ندعَ في الأوس دعوة هرباً وقد بدا في الكتيبة النصف
كنتم عبيداً لنا نخولكم من جاءنا والعبيد تُضطعف
كيف تعاطون مجدنا سفهاً وأنتمَ دعوة لها وكف

(الوكف : الهب والنفس)

شانكم جذكم وأكرمنا جدٌّ لنا في الفعال ينتصف
وكم قتلنا من رائس لكم في فيلق يجتدى له التلف
ومن لئيم عبد يحالفكم ليست له دعوة ولا شرف

وبقيت المهاجاة بين الشاعرين ما بقي الخلاف بين الحيَّيْن ، فلما ضمَّ الاسلام منهما ما تفرق ، ورأب ما تصدع ، وأصبحوا الأنصار ، بعد أن كانوا أوسيين وخزرجيين حمل حسان في عنقه هذه الأمانة ، وعاش ينظر لقومه بين جمهور المسلمين ، يخاف عليهم الحيف ، ويود لهم النصفة . وكان يعلم أن القبائل العربية ، وإن جمع الاسلام بين قلوبها وألسنتها ، إلا أنها لم تخلص من بقية من هوى يتصل بأصولها وأجناسها ، والأمر سائر الى رائس ومرءوس ، ومع هذا الطمع والخشية . فرأينا « حسان » يخفق قلبه بما فيه لقومه ، ويشفق أن يتحيَّف حقهم متحيف ، أفتراه وهو يرثي رسول الله صلى الله عليه وسلم تجيش في نفسه الخواطر فيقول :

يا ويح أنصار النبي ورهطه بعد المغيَّب في سواء الملحد

(سواء الملحد : وسطه)

ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا سوداً وجوهُهم كلون الإثمد
ولقد ولدناه وفينا قبرُه وفضول نعمته بنا لم يُجْحد

* * *

هذا جانب من حياة « حسان » عرفت فيه بلاءه ، رأينا أن نصل حلقاته ، فنجمع

ما كان منه في الإسلام إلى ما قبله ، إذ الأمر أمر قوم بين انقسام وتضام ، وحياة شاعر شارك في الحالين ولبس لكل لباسه .

وهناك جانب آخر عاش له حسان مناخاً مناضلا ، بدأ بهجرة الإسلام من مكة الى يثرب ، وكان الى جنبه فيه كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة ، فكانوا ثلاثة لثلاثة قرشيين في مكة ، هم عبدالله بن الزبعري ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعمرو بن العاص .

القرشيون ينالون بألسنتهم من تلك الرسالة الجديدة عليهم ويعرضون لصاحبها عليه السلام . واليثربيون ، وعلى رأسهم حسان ، يدفعون ويذودون .

ولقد شبَّ « حسان » على الذياد وأبلى فيه ، فلما جاء الإسلام يثرب ودان هو به ، نصب نفسه للدفاع عنه والنَّيل من خصومه ، فتتبع سادة قريش وزعماءهم ، ومشى مع الوقائع والأيام يشيد بمواقف المسلمين فيها ، ووصل لسانه بأذنيه ، فما دبَّ الى سمعه قول يمس المسلمين ، إلا انطلق معه لسانه بما يملك .

فهو مرة يهجو أبا سفيان فيقول :

لقد علم الأقوام أنَّ ابن هاشم ... هو الغصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد
ومالك فيهم مَحْتد يعرفونه ... فدونك فالصق مثل ما لصق القُرد

(القرد : الفراد)

وأبلغ أبا سفيان عني رسالة ... فمالك من إصدار عزم ولا وِرْد
وإن سنام المجد من آل هاشم ... بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
وما ولدت أبناء زُهرة منهمُ ... كرامٌ ولم يقرب عجائزك المجد
ولست كعبّاسٍ ولا كابن أُمه ... ولكن هجين ليس يُورى له زند
وأنت زَنيم نِيط في آل هاشم ... كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

(الزنيم : المدعى)

وان امرأ كانت سمية أُمَّه ... وسمراء ، مغلوب اذا بُلغ الجهد

(سمية : أم أبي سفيان . وسمر : أم أبيه)

*

وحيناً يهجو الوليد بن المغيرة :

إذا نسبت يوماً قريش نفتكمُ وإن تنتسب شجعٌ فأنت نسيبها
وإنَّ التي ألقتْك من تحت رجلها وليداً لمهجان الغذاء خبوبها
(مهجان : راعية . والغذاء : البخل الدنار . وخبوبها ، أي تخب و إثرها)
وأمك من قَسْرٍ حباشة أمها لسمراء فهم آسنُ البول طيبها
(قسر : من بجيلة . وفهم : أبو حي)

ويعرض لصفوان بن أمية : فيفحش عليه :

من مُبلغ صفوان أن عجوزه أمة لجارة معمر بن حبيب
أمة يقال من البراجم أصلها نسبٌ من الأنساب غير قريب
سائل بحنبل إن أردت بيانها ماذا أراد بخربها المثقوب
(حنبل : رجل)
لولا السِّفار وبُعد خَرْق مهمهٍ لتركتُها تحبو على العرقوب

ولا يُنفلت منه الحارث بن هشام حين يقول له :

ياحار إن كنت امرأ متوسعاً فافِدْ الأُلى ينصفن آل جناب
(ينصفن . يخدمن)
أخوات أمك قد علمت مكانها والحقُّ يفهمه ذوو الألباب
إن الفرافصة بن الأحوص عنده شجن لأمك من بنات عُقاب
(الفرافصة ، هو أبو فاتنة امرأة عثمان)
أجمعت أنك أنت ألأم من مشى في فُحش مومسة وزَوْك غَراب
(الزوك . مشية الغراب)
وكذاك ورَّثك الأوائل أنهم ذهبوا وصرت بخزية وعذاب
فورثت والدك الخيانة والخنا واللؤم عند تقايس الأحساب
وأبان لؤمك أن أمك لم تكن إلاَّ لشرِّ مقارف الأعراب

*

وهذه أبيات له في هجاء أمية بن خلف الجمحي :

عمرك ما أوصى أميةُ بِكْره بوصيةٍ أوصى بها يعقوبُ
أوصاهم لما تولى مدبراً بخطيئة عند الإله وحُوب

أبيٌّ إن حاولتمُ أن تسرقوا فخذوا معاول كلها منقوب
وأتوا بيوت الناس من أدبارها حتى تصير وكلهن خُجُوب

وهكذا عرض « حسان » لسادة قريش ، سيداً بعد سيد ، وكابراً في إثر كابر ، يهدم من جاههم ، ويحطم من خطرهم ، نافذاً إلى أصولهم ، والجاً الى أحسابهم ، في حذر وتبصر ، فالوشائج بين هؤلاء وغير المسلمين متصلة ، وفيهم من تتصل أسبابه بأسباب الرسول صلى الله عليه وسلم — يُبصره بالمآخذ ، ويهديه الى المناقص ، النسّابة أبو بكر .

وحسّان إذ يفعل ليُسمع معاشر يستخفها القول ، ويستهويها الشعر ؛ تُعز من يعزه الشعر ، وتهون من يهونه .

* * *

تلك رسالة حسان في الجاهلية والاسلام ، عاش لها مخلصاً موفقاً ، ولا يضيره أن أسباب الإجادة خانته في بعض ما قال . فحسبه أن الناس إذا ذكروا ذلك الجهاد الذي احتدم بين الدعوة الاسلامية ومشركي العرب ذكروه ، وإذا عدوا الأبطال المحاربين لم ينسوا أن يذكروه في أول القائلين . والكفاح يد ولسان . وقد حرم حسان اليد الباطشة وقلب الشجاع ، فملك اللسان اللاذع وقلب المؤمن . فأعان بهما جهده . وعاش بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم متصلاً برسالته ، على ما يرى ويبصر ، يعنيه أمر الأنصار فيما يعنيه من أمور المسلمين .

وأنت تعرف كيف صار الأمر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى فُرقة ، كان حسان فيها جانحاً الى عثمان واصلاً حبله بحبله حاملاً على خصومه ، تحس هذا في تعريضه بعليّ وهو يرثي عثمان :

من سرّه الموت صرفاً لا مزاج له فليأت مأسدة في دار عثمانا
بل ليت شعري وليت الطير تخبرني ما كان شأن عليّ وابن عفانا
لتسمعن وشيكاً في دياركم الله أكبر يا ثارات عثمانا

إلاّ أن هذا الميل لم ينسه صلته بأقطاب المسلمين يحملون غير رأيه ، ووجد في الحرص على تلك الصلة ما يزيد الأمر قوة ، فلم يفته أن يرثي أبا بكر وعمر ، وهو وإن أقلّ ، فرثى أبا بكر بأربعة أبيات ، وعمر بثلاثة ، إلاّ أنه استطاع أن يجرد نفسه مما تجد ، والنفوس لا تراد على الكمال كله ، وأحمد ما تُلفى أقرب ما تكون إليه .

المُتَنَابِزُونَ

الأخطل - الفرزدق - جرير

التقى المسلمون في «صفين» شيعتين، إحداهما تظاهر «عليًا» والأخرى تناصر معاوية. واستحرَّ القتل بينهم حتى بلغ أشدّه ليلة الهرير، فرفعت المصاحف، ونادى الشاميون: كتاب الله بيننا وبينكم. ويصدقك النجاشي بن الحارث حين يقول:

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا عليه كتاب الله خير قُرانِ

ونادوا عليًا يابن عمّ محمد أما تتقي أن يهلك الثقلان

وانتهى الفريقان الى تحكيمٍ جَرَّ إلى خروج خارجة على عليّ وبقيت الأمور الى اضطرابٍ أحمس نفراً من الخوارج: ابن ملجم، والبُرك، وزادويه، أجمعوا أمرهم على أن يقتلوا عليًا، ومعاوية، وابن العاص.

ويشاء القدر أن يُصمي ابنُ ملجم ويُشوي صاحباه. ويخلو معاوية بالحسن، فينزل له الحسن عن الأمر جنوحاً للسلم وحقناً للدّم. ولكنه لا يلبث أن يتجرّعها مسمومة فتفري أحشاءه فرياً لا يخطو معه إلى شفاء.

ويدخل معاوية الكوفة خليفة، فيرغب إليه الراغبون، ويصوّب صوبَه الطامعون. وينحاز عنه آخرون ممن لهم هوى في بني هاشم.

* * *

ذلك أمر الناس والأخطل وصاحباه الى ظهور. ويدركه الأخطل سابقاً. وتصل الأيام حبلَه بحبل يزيد بن معاوية، ومعاوية مع الملك يُصرّفه. ويرى الأخطل الأسباب تُريده على أن يحيا لهذا البلاط فيحيا له.

ونحب أن نَرُدَّك الى بيان ووضوح ، فنذكر لك أن صوت الراغبين عن معاوية أخذ يعلو . وعدا شعراؤهم طورهم . وكان لمعاوية حِلم ضُرب به المثل . فوثب عبد الرحمن بن حسان وثبته التي هاجت يزيد حين سمع له شعراً في التشبيب برملة أخته . واستعدى عليه أباه فلم يُسعده .

ولم يجد يزيد من شيعته غير كعب بن جعيل التغلبي ، وكعب تمنعه حنيفيته أن يقول في الأنصار . فيضم يزيدُ إليه الأخطلَ ، وما عليه من حرج أن يقول :

لعن الإلـه بني اليهود عصابةً بالجزع بين جُلاجل وصرارِ

(جلاجل وصرار : موضعان)

قوم إذا هدر العصيرُ رأيتَهم حمراً عيونهم كجمر النارِ
ذهبت قريش بالمكارم والعُلَى واللؤم تحت عمائم الأنصار
فذروا المعالي لستمُ من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجّار

(المساحي : جمع مسحاة ، وهي آلة يفشر بها)

واذا نسبت ابن الفُريعة خِلتَهُ كالجحش بين حمارة وحمار

(ابن الفريعة : حسان بن ثابت)

وثارت ثائرة الأنصار واستنصفوا معاوية ، وهمَّ معاوية أن يفعل ، فحمى يزيد الأخطل ودفع عنه . وكانت التي بلا بها الأخطلُ يزيد . فلما أمن معها العطب وذاق الأمن أجرى لسانه بشكره :

ولولا يزيد ابن الملوك وسَيبُه تجلّلت حدباراً من الشر أنكدا

(الحدبار : الناقة المهزولة)

وكم أنقذتني من جَرُورٍ حبالكم وخرساءَ لو يرمى بها الفيل بلَّدا

(الجرور : البئر العميقة . والخرساء : الداهية . وبلد : لصق بالارض لما دهاه)

أبا خالد دافعت عني عظيمة وأدركت لحمي قبل أن يتبددا

(أبو خالد ، كنية يزيد)

وأطفأت عني نار نعمان بعد ما أغذّ لأمرٍ عاجز وتجرّدا

(نعمان، هو ابن بشير الانصاري . وكان رسول الانصار الى معاوية في شأن الاخطل . وأغذ : أسرع. ولأمرٍ عاجز ، أي شديد يعجز صاحبه)

ولما رأى النعمان دوني ابن حُرّة طوى الكشح إذ لم يستطعني وعَرّدا

(طوى الكشح : أضمر العداوة . وعرد : هرب)

وما وجدت فيها قريش لأمرها أعفّ وأوفى من أبيك وأمجدا

وأصلب عوداً حين ضاقت أمورهم وهمّت معدٌّ أن تخيم وتخمدا

(معد ، يريد العرب . وتخيم : تجبن)

فأصبحت مولاها من الناس بعده وأحرى قريش أن يهاب ويحمدا

فأقسمت لا أنسى مدى الدهر سيّبه غداة الليالي ما أساغ وزوّدا

(ما أساغ ، أي ما أساغني ريقاً ، أي فرج كربتي . وزود ، أي زودني بخير)

هذه واحدة عرف فيها الأخطل أيّد صاحبه ومُنّته ، وأحسّ أنه يأوي إلى ركن شديد . ثم أترى الأخطل ، وهو بين هاشمية وأموية ، يختار غير من اختاروه ؟

عرف ذلك الأخطل فنصّب نفسه للامويين شاعراً يذود عنهم ، ومن ورائه قومه يشدون أزره ، وينصرون من ناصر . ولم تكن تلك الأيام التي خاضوها مع القيسيين في مرج راهط إلاّ تثبيتاً لملك المروانيين ، وتثبيطاً لمن هموا بهم وأرادوا أن يديلوا عليهم .

ويعرف الأخطل أيادي قومه فيضمنها شعره في عبد الملك :

بني أمية قد ناضلت دونكم أبناء قومٍ هُمُ آووا وهم نصروا

(يشير الى هجائه الانصار)

أخمت عنكم بني النجار قد علمت عُليا معد وكانوا طالما هدروا

(عليا معد : قريش . وهدروا : أكثروا من الكلام)

حتى استكانوا وهم مني على مَضض والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

وقد نُصرتَ أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الغُوطة الخَبرُ

يُعرّفونك رأس ابن الحباب وقد أضحى وللسيف في خيشومه أثرُ

(ابن الحباب ، هو عمير بن الحباب ، وهو الذي كان يؤلب على عبد الملك وقد تاب اتصاراً للامويين)

والحارث بن أبي عوف لَعِبْنَ به ... حتى تعاوره العِقْبان والسُّبُرُ
وقيس عيلان حتى أقبلوا رفصاً ... فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا
فلا هدى الله قيساً من ضلالتهم ... ولا لعا لبني ذكوان إذ عثروا

(لا لعا لبني ذكوان ، أي لا أقامهم الله . وذكوان : رهط عمير بن الحباب من سليم)

ولا الضباب َ إذا اخضرت عيونهم ... ولا عُصيَّة إلاَّ أنهم بشر

(اخضرت : اسودت . وعصية : بطن من سليم)

وقد أصابت كلاباً من عداوتنا ... إحدى الدواهي التي تخشى وتنتظر
أما كليب بن يربوع فليس لهم ... عند التفارط إيراد ولا صدرُ

(التفارط : التقدم الى الماء)

ومضى عبد الملك وخلفه ابنه الوليد . ولأمر ما يفقد الأخطل ما كان له عند من سبق، ولا يعود مشفعاً في أمور قومه وخاصته . ولا يملك هو فكاكاً مما شدَّ نفسه إليه، ويبقى على ولائه للأمويين فيقول مستعطفاً :

بني أمية قد أجدت فواضلكم ... منكم جيادي ومنكم قبلها نَعمي
فإن حلفت لقد أصبحت شاكرها ... لا أحلف اليوم من هانا على أثم
وقد علمتم وإن أصبحت نائيكم ... نصحي قديماً وفعلي غير متهم
لقد خشيت وشاة الناس عندكم ... ولا صحيح على الأعداء والكلِم

وتنوبه وقومه الغرامات ، وتؤده الآئدات فلا يملك غير أن يشكو :

وإنّها معشر نابت علينا ... غرامات ومُضلعة كؤودُ
وعضَّ الدهر والأيام حتى ... تغيَّر بعدك الشَّعر الجديد

(أي شاب)

* * *

ويحملها الأخطل سنين خمساً عجافاً ، لم يملك فيها غير لسان المستعطف توافيه بعدها منيَّته فيمضي بقول جرير :

زار القبور أبو مالك ... فكان كألأم زوَّارها

ستبكي عليه دَروم العشاء خبيثٌ تَنسُّم أسحارها

(الدروم : التي تدور بالليل وتتبع القبيح)

تنوح بناتُ أبي مالك بسُوق النصارى وزمَّارها

* * *

ولنترك الأخطل الى حين . ولنأخذ معك في حديث الفرزدق .

فهو ، كما في حفظك ، أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة ؛ دارميٌّ ، تميمي . لأبيه وجدِّه ذكرٌ بين الأجواد . فيروون أن صعصعة بذل من ماله في فداء ثلاثين موءودة . وقد ذكرها له الفرزدق وأكثر في مثل شعره :

وجدي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأدِ

وعرفت لغالب كف ندية وبرٌّ بالأضياف تحدَّث به الفرزدق في رثائه له :

نعم أبو الأضياف في المحل غالب إذا لبس الغادي يديه من البَرْدِ

وما كان وقافاً على الضيف مُحجماً إذا جاءه يوماً ولا كابيَ الزَّند

وكان إذا ما أصدرتْه مكارم وساور أخرى غير مُجتنح الوِرْد

*

ومن حيث بدأ الأخطل بدأ الفرزدق . وإن كادت سوابق الحوادث لتجنح به الى غير ما شُغل به . فقد عُرف مَيلُ قومه الى الأخذ بناصر « عليّ » فيما ثار بينه وبين عائشة . واستبان هواهم العلوي حين تقسمت الأهواء بين « علي » ومعاوية . وكانت لغالب على « عليّ » وفدة مقدمه الكوفة وفي يده ابنه الفرزدق . ويروون أن « عليًّا » حبَّب الى الأب أن يأخذ ابنه بحفظ القرآن .

علويَّة لا ينال منها إلاَّ وقفة « لضبة » أخوال الفرزدق إلى صفوف عائشة يوم الجمل. وما آلت الكلمة لمعاوية ، واستوى ولاته على الكوفة ، حتى جرى الدارميون قوم الفرزدق فيمن جروا يبايعون . ولعلهم اشتروا الأمن بكلمات لا تجد لها صدى في القلوب .

وما نعرف للفرزدق هاوية صريحة إلاَّ مع قوله يمدح زين العابدين :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلُّ والحرمُ

هـذا ابن خير عباد الله كلهم هـذا التقي النقي الطاهر العلمُ
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلَه بجدِّه أنبياءُ الله قد خُتموا

ومنها :

من يشكر الله يشكر أوليّـة ذا فالدين من بيت هذا ناله الأممُ
يُنمى الى ذروة الدين التي قصرت عنها الأكف وعن إدراكها القدمُ
مشتقة من رسول الله نبعته طابت مغارسه والخِيم والشيَمُ

ومنها :

من معشر حبهم دينٌ وبغضهم كُفر وقربهم منجى ومُعتصمُ
مقدَّم بعد ذكر الله ذكرهم في كل بدء ومختومٌ به الكلمُ
إن عُد أهل التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض قيل همُ

*

وقد أغضبت هذه «هشاماً» فحبسه . ففزع الفرزدق بقوله فيه :

رأيت بني مروان يرفع ملكهم ملوك شباب كالأسود وشيبها
بهم جمع الله الصلاة فأصبحت قد اجتمعت بعد اختلاف شعوبها

ومنها :

عسى بيدي خير البرية تنجلي من اللَّزبات الغبر عنا خطوبها
إذا ذكرت نفس ابن مروان صاحبي ومزوان فاضت ماءَ عيني غروبها
رأيت بني مروان إذ شُقت العصا وهرَّ من الحرب العوان كليبها
شفوا ثائر المظلوم واستمسكت بهم أكف رجال رُدَّ قسراً شغوبها
جزى الله خيراً من خليفة أمة إذا الريح هبت بعد نوء جنوبها

ويقنع هشام منه بهذا فيعود الى برّه ويخلي سبيله .

ولا نكاد نعرف للفرزدق غير هذه يلفتنا فيها الى هاشميته . أما سائر شعره ففي مدح الأمويين ، جرى معهم من شبه الى دبه فأكثر :

إذا لاق بنو مروان سلموا لدين الله أسيافاً غضابا
صوارم تمنع الاسلامَ منهم يوكل وقعهنَّ بمن أرابا

بهنَّ لقوا بمكة ملحديها ومسكن يحسنون بها الضرابا

(يشير الى الوقعة التي كانت بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير في مسكن موضع قريب من اورانا على نهر دجيل)

فلم يتركنَ من أحدٍ يصلي وراء مكذّب إلاَّ أنابا

قال في ملوكهم ملكاً بعد ملك، لم يقصر ما ملك أن يطيل، ولم ينقص ما قدر أن يفي.

مدح عبد الملك، وهو عنه بعيد، ما وفد عليه ولا ضمه مجلسه، فقال:

يأيها الراكب المُزجي مطيته يريد مجمع حاجات الأراكيب
إذا أتيت أمير المؤمنين فقل بالنُّصح والعلم قولاً غير مكذوب

ويذكر صولته وما عرف لآله من بطش أرغم الخارجين عليه:

أما العراق فقد أعطتك طاعتها وعاد يعمر منها كل تخريب
أرض رميت إليها وهي فاسدة بصارم من سيوف الله مشبوب
فالأرض لله ولأهـا خليفته وصاحب الله فيها غير مغلوب
بعد الفساد الذي قد كان قام به كذّاب مكة من مكرٍ وتخريب

(يريد عبد الله بن الزبير الذي ادعى الخلافة بمكة وملأه نفر من العراقيين)

*

ومدح الوليد بن عبد الملك وما زاره ولا وطىء أعتابه:

اليك أمير المؤمنين أنختها الى خير من حُلَّت له عُقد الرَّحل
إلى خيرهم فيهم قديماً وحادثاً مع الحلم والايمان والنائل الجزْل
ورثت أباك الملك تجري بسمته كذلك خوط النبع ينبت في الأصل
كداود إذ ولى سليمان بعده خلافته نُحلاً من الله ذي الفضل
يسوس من الحلم الذي كان راجعاً بأجبال سلمى من وفاء ومن عدل

ثم ينتهي من مدحه الى النَّيل من خصومه وتسفيه ما هموا به:

فمن ذا الذي يرجو الخلافة منهم وقد قمت فيهم بالبيان وبالفضل
فبينت أن لا حقَّ فيها لحاذل تربص في شك وأشفق من مَثْل

(المثل: التنكيل)

وقد خذلوا مروان في الحرب وابنه أباك وأدلوا فيهما مع من يدلي

ثم يصل ما انقطع ويعود الى مروان :

ففزت بما فازا به من خلافة وزدت على من كان قبلك بالحَصْل

بعافية كانت من الله جللت مشارقها أمناً الى مغرب الأمْلِ

(الامل : منقطع جبال الرمل . يريد أقاصي الحدود)

وكنت المصفى من قريش ولم يكن لوطئك فيهم زيغ كعب ولا نعلِ

ويخرج الى سليمان بن عبد الملك مادحاً سائلاً :

يابن الخلائف لم نجد أحداً يبقي لحرّ نوائب الدهر

إلاّ الرواسي وهي كائنة كالعهن وهي سريعة المرّ

أحييت أنفسنا وقد هلكت وجبرت منا واهيَ الكسر

فلقد عززنا بعد ذلتنا بك بعد ما نأبي من القَسر

ويؤم ساحة عمر بن عبد العزيز في مثل ما أمّ له سليمان من قبل :

وساقنا من قسا يزجي ركائبنا اليك منتجعُ الحاجات والقدر

(قسا : موضع بالعالية)

وجانحات ثلاثٌ ما تركنَ لنا مالاً به بعدهنّ الغيث ينتظر

ثنتان لم تتركا لحماً وحاطمة بالعظم حمراء حتى اجتيحت الغرر

(الحمراء : السنة الشديدة)

فقلت كيف بأهلي حين عضّ بهم عامٌ له كل مالٍ مُنعق جَزَر

(منعق : ما يصاح به . وجزر : مباح للذبح)

عام الى قبله عامان ما تركا مالاً ولا بلّ عوداً فيهما مطر

*

فعُجتها قِبَل الأخيار منزلةً والطيبي كل ما التاثت به الأزر

(التاثت به : التفت)

سيروا فإن ابن ليلى من أمامكم وبادروه فإن العُرف مُبتدر

وبادروا بابن ليلى الموت إنّ له كفين ما فيهما بخل ولا حصر
أليس مروانُ والفاروقُ قد رفعا كفّيه والعود ماء العرق يعتصر

*

ويلي هشام الأمرَ والفرزدق قد خلّف الثمانين أو كاد ، فيخبو إليه من العراق ، ويقلبه أن هشاماً لا يزال واجداً عليه لمدحه زين العابدين . فايتربصها ويلات إن لم يسع إليه يكيل له المديح :

يقول بنيّ هل بك من رحيل لقوم منك غير ذوي سوام
فتنهض نهضة لبنيك فيها غِنىً لهمُ من الملك الشآمي
فقلت لهم وكيف وليس أمشي على قدميّ ويحكم مرامي
وهل لي حيلة لكمُ بشيء إذا رجلاي أسلمتا قتامي
رمتني بالثمانين الليالي وسهم الدهر أصوب سهم رامي
أقول لناقتي لما ترامت بنا بيد مسربلة القتام
أغيثي مَن وراءكِ من ربيع أمامك مرسلٍ بيدي هشام
يدي خير الذين بقوا وماتوا إماماً وابن أملاك عظام
به تحيا البلاد ومن عليها من النعم البهائم والأنام
ممدت إليك خير الناس حيًّا لتنعش أو يكون بك اعتصامي
الى ملك الملوك جمعت همي على المتردفات من السّمام
يداك يدُ ربيع الناس فيها وفي الأخرى الشهور من الحرام
فإن الناس لولا أنت كانوا حصى خرز تساقط من نظام
وبشرت السماء الأرض لما تحدّثنا بإقبال الإمام

وما نريد أن نشق عليك فنعرض لك غير هذا مما مدح به الأمراء والقادة والسادة . فالخطب فيه يسير ، ولنا فيه بعد جرير حديث .

*

ويكاد جرير يشرك الفرزدق عمره ، فقد انتهى معه إلى العام الذي قضى فيه ، لم يهنأ بالحياة بعده إلاّ أياماً أربعين أو ثمانين .

لكنه لم يبدأها معه ، فنحن نعرف الفرزدق يوم صحب أباه إلى « عليّ » . ونعرف مولد جرير بين العامين الثامن والعشرين والثاني والثلاثين ، ويكاد يدلنا هذا على أن الفرزدق سبق جريراً بسنين لا تزيد على العشر كثيراً .

*

والأمر هنا صورة منه هناك مع الفرزدق ، فقد عاش جرير للمروانيين يذكرهم فيشيد :

يا آل مروان إن الله فضّلكم ... فضلاً قديماً وفي المسعاة تقويمُ
قومٌ أبوهم أبو العاصي فأورثهم ... جُرثومةً لا تسامیها الجراثيمُ
قد فات بالغاية العليا فأحرزها ... سامٍ خروجٌ إذا اصعكّ الأضاميمُ
يحمي حماهُ بِجَرّارٍ لهُ لجبٍ ... للأرض من وَأده فيها هماميمُ
ما الملكُ منتقلٌ منكم إلى أحدٍ ... ولا بناؤكم العاديّ مهدومُ

ويقول في عبد الملك يمدح ويسأل :

تعزّت أم حزرة ثم قالت ... رأيت المُوردين ذوي لقاح
تعلل وهي ساغبةٌ بنيها ... بأنفاسٍ من الشّبم القراح
سأمتاح البحور فجنبيني ... أذاة اللوم وانتظري امتياحي
ثقي بالله ليس له شريكٌ ... ومن عند الخليفة بالنجاح
أغثني يا فداك أبي وأمي ... بسيبٍ منك إنك ذو ارتياح
فإني قد رأيت عليّ حقّا ... زيارتيَ الخليفة وامتداحي
سأشكر إن رددت عليّ ريشي ... وأثبتّ القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

ويملك الوليد بن عبد الملك فلا ينسى نصيبه من برّه وعطائه :

إني لمعتمد الخليفة زائراً ... وأراه أهل زيارتي وتعرُّضي
ليس البريّ كمن تمرّض قلبه ... فأنا المشايع قلبُه لم يمرضِ
فوثقتُ ما سلم الخليفة بالغنى ... ليس البحور إلى الثماد البُرّضِ

(البرض : الماء القليل)

بحرٌ تفيض له سجالٌ بالندى ... وإليه جارية البحور الفُيّضِ

يجزيك ربُّك حُسنَ قرضك إنه ... حَسَنُ المعونة واسع المتقرَّضِ
والله قَدَّر أن تكون خليفةً ... خير البرية وارتضاك المرتضي

ويمضي الوليد ويخلفه سليمان ، فينهض اليه منشداً :

سليمان المبارك قد علمتم ... هو المهديُّ قد وضح السبيلُ
أجرت من المظالم كل نفسٍ ... وأدَّيت الذي عهد الرسول
صفت لك بيعة بثبات عهدٍ ... فوزن العدل أصبح لا يميل
إذا ابتدر المكارم كان فيكم ... ربيع الناس والحسب الأثيل
علوتم كل رابية وفرع ... وغيركم المذانب والهجول

*

وما يستقر عمر بن عبد العزيز حتى يتعجله البرّ ، جاعلاً من المدح سبيله :

إن الذي بعث النبي محمداً ... جعل الخلافة في الإمام العادلِ
قد نال عدلك من أقام بأرضنا ... فاليك حاجة كل وفد راحل
اني لآمل منك خيراً عاجلاً ... والنفس مولعة بحب العاجل
والله أنزل في الكتاب فريضة ... لابن السبيل وللفقير العائل

*

ويخلف يزيدُ عمرَ فلا يعيا عن القول :

لما ملكت عصا الخلافة بينت ... للطالبين شمائل ونجَارُ
ساس الخلافة حين قام بحقها ... وحمى الذمار فما يضاع ذمار
ويزيد قد علمت قريش أنه ... غمر البحور الى العلا سوَّار
وعروق نبعتكم لها طيب الثرى ... والفرع لا جعد ولا خوَّار
إن الخليفة للييتامى عصمة ... وأبو العيال يشفه الإقتار

ومن بعد يزيد هشام وجرير على بابه ينشد :

لو ان الله فضَّل سعي قوم ... صفت لكم الخلافة والعهودُ
على مَهل تمكن في قريش ... لكم عِظم الدسائع والرُّفود
هشام الملك والحكم المصفَّى ... يطيب إذا نزلت به الصعيد

يعم على البرية منك فضل وتُطرق من مخافتك الأسود
وإنْ أهل الضلالة خالفوكم أصابهم كما لقيت ثمود

*

وهكذا لم يخص جرير خليفة دون خليفة . شأن سابقيه . واتصل بعد هذا بأمراء بني أمية وقوادهم . كما لم يضن على نفر من وجوه القوم بما جادت به قريحته . فمدح العباس ابن الوليد وسلمة بن عبد الملك والحجاج والجنيد بن عبد الرحمن المري . وعبد الله بن عمرو ابن عثمان والمهاجر بن عبد الله الكلابي ونفراً آخرين .

***

هذه صفحات ثلاث ، جمعت لك فيها عن الشعراء الثلاثة أكثر ما يعنينا عنهم ، وخلفت ناحية نقائضهم التي عُرفت لهم وشاعت عنهم ، حتى إن محدثاً يكاد لا يذكرهم إلا بها . فتلك هائجة من الشر خلقتها المنافسة بين ابني العم : الفرزدق وجرير . وأذكى الناس نارها . ولا يفوتك ما حبا الملوك به من فعل أو قول ، وما أثنوا به وعابوا . فلمثل هذا افترق الناس ولا يزالون يفترقون .

ولا أنصبك كثيراً إذا عرّفتك قبل هذا أن الفرزدق كان ينزع الى الهجاء صباه . هاجى غير واحد . ثم زهد في الشر وهمّ أن يحبس نفسه للقرآن يتدبره . وإذ به يُحرَّك لما عافه ، وينتهي إليه أن الشر بين جرير والبعيث المجاشعي قد استشر ، وأن جريراً نال من البعيث في حرمات قومه .

فيهب لجرير ولسانه ينشد :

أنا الضامن الراعي عليهم وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي
ولو ضاع ما قالوا : ارْعَ منا وجدتهم شحاحاً على الغالي من الحسب الجَزْل
ولست إذا ثار الغبار على امرىء غداة الرهان بالبطيء ولا الوَغْل
ولولا حياء زدت رأسك هزمةً إذا سُبرت ظلّت جوانبها تغلي

ثم يتحمّى للأمر ويكشف عن قناعه ، فيقول :

دعاني ابن حمراء العجان ولم يجد له اذ دعا مستأخراً عن دعائيا
فنفّست عن سَمَّيه حتى تنفّسا وقلت له لا تحش شيئاً ورائيا

أرحتُ ابن حمراء العجان فعرّدت فقارعته الوُسطى وان كان وانيا

ثم يجري الشر الى مداه يؤور أواره ، وقد أشرت الى بعضه . ويخوضه الأخطل بعد ما عاش صدر عمره لا يأبه له ، وينحاز الى الفرزدق . فيسمع الناس لثلاثتهم ما شئت من إسفاف لا ضابط له من حياء .

*

تلك الصفحة ، وإن اتصلت في الحين بعد الحين ببعض ما نُريد الشعراء له ، إلاّ أنك تجدها هنا أمراً خرج الى المهاترة ، وملك زمامه الجهل ، وكاد يكون إشباعاً لشهوات ، ومن فيض النزوات .

ونحن — وإن رأينا الإسراف فيه قد حجز القوم عن الالتفات الى غيره بعض الشيء — لا نطلب مثله سبباً من أسباب دراستنا هنا . فما كان كما قلنا — جلّهُ للذود عن حرمات والدفاع عن حوزات . ولكنه كان للشر الذي صيغت منه الطبائع . فلندعه لمن شاء أن يعرف الأخطل والفرزدق وجريراً شتّامين عيّابين . فتلك دراسة تحلو لمن أحب أن يعرف النفوس كيف تخلص للخير وكيف يغلبها الشر .

*

وما حدّثناك عن هؤلاء الثلاثة ، ونحن نعرض عليك صورهم وألوان قولهم ، إلاّ لنعود إليهم هنا معقبين . فثلاثتهم كما رأيت عاشوا في ظل الدولة الأموية منتصرين لها .

أما عن الأخطل فقد عرفت كيف بدأ . وأنه قد أقحم على الأمر إقحاماً — وما أظن الأخطل كان يحمّل نفسه ، وهو من تعلم ، أن يهجو الأنصار ، وما أرادها شاعر مسلم . وقد لقي بسببها شيئاً حين أمكن منه معاوية ، لكنه وجد يَدَ يزيد فقوي بها وتبدّل خوفه أمناً .

عندها رأى الأخطل أن يختار مكانه الغانم ، وكان قومه إليه ، والدولة الأموية مع بدئها تنبئ الحوادث أن الأمور إليها . فمضى يمكّن لنفسه لدى سادتهم ، يمدحهم ويمدح من اتصل ، ويهوّن من شأن أعدائهم والخارجين عليهم .

غير إنا نراه كان لا يقول برأي حين قال في الخلاف القائم ، وأنه جرى على رأي المسلمين المنتصرين لبني أمية :

فالله لم يرض عن آل الزُّبير ولا ... عن قيس غيلان حبًّا طال ما خربوا
يعاظمون أبا العاصي وهم نفرٌ ... في هامة من قُريش دونها شذب

ثم يقول :

ثم سعوا لابن عفان الإمام وهم ... بعد الشماس مروْها ثمت احتلبوا
حربًا أصاب بني العوّام جانبها ... بعداً لمن أكلته النار والحطب

*

ويقول :

هم الذين أجاب الله دعوتهم ... لما تلاقت نواصي الخيل فاجتلدوا
ليست تنال أكفُّ الناس بسطتهم ... وليس ينقُض مكرُ الناس ماعقدوا
ويوم صفّين والأبصار خاشعة ... أمدّهم اذ دعوا من ربهم مدد
على الألى قتلوا عثمان مظلمة ... لم ينههم نشدٌ عنه وقد نشدوا
فَسَمٌّ قرّت عيون الثائرين به ... وأدركوا كل ثبل عنده قود
فلم تزل فيلق خضراء تحطمهم ... تنعي ابن عفان حتى أفرخ الصَّيد

(أفرخ : سكن . والصيد : الكبر)

وأنتم أهل بيت لا يوازنهم ... بيت إذا عُدّت الأحساب والعُدد
وإن سألت قريشاً عن ذوائبها ... فهم أوائلها الأعلون والسند
والمسلمون بخير ما بقيت لهم ... وليس بعدك خير حين تفتقد

بمثل هذا قال الأخطل في الأمويين . وما نريد أن نجمع له كل ما قال . ولكنا نجتزئ منه بما يدلنا على ما أراد . أراد الاخطل لنفسه صلة يقوى بها ويحمي ذويه من أن يُجار عليهم أو ينال منهم .

هذا هو الأخطل حين بدأ . ورأى قومه وصنعهم بقيس ، وكانت قيسٌ حربًا على بني مروان . فعدا مقامه الأول إلى مقام المشارك فى التمكين للدولة برماح قومه وأسنّتهم فيقول :

لقد علمت تلك القبائل أننا ... مصاليت جذامون آخية الشَّغب

فان تك حرب ابنيْ نزار تواضعت فقد عذرتنا في كلاب وفي كعب
وفي الحُقب من أفناء قيس كأنهم بمنعرج الثرثار خُشب على خُشب
وهنَّ أذقنَ الموت جزءَ بن ظالم بماضية بين الشراسف والقُصب
لعمري لقد لاقت سُليمٌ وعامرٌ على جانب الثرثار راغية البكر

وقد ذكرنا لك شيئاً في مثله قبلُ . وتنتهي الأمور بالأخطل إلى ما كان يخشى . فاذا الوليد يجفوه، ولم يجد الأخطل غير أن يقبع ويقنع بأن يقول :

ولقد علمتم وإن أصبحت نائيكم نصحي قديماً وفعلي غير متَّهم

ثم إذا فدحته وقومه المغارم يقول :

وعضّ الدهر والأيام حتى تغير بعدك الشَّعر الجديد

* * *

يقولون وَفَى الأخطل لسادته فى الرخاء والشدَّة . وأقول لقد اختار الأخطل النفع وشراه بلسانه . فلما فقده لم يملك أن يقول على المنع كما قال على الاعطاء . وكان حين اشترى له ولقومه حكيماً ، ولكنه لم يكن حين حُرم على شيء من الجرأة والشجاعة . فقنع بتلك الأبيات القليلة وكتم ما يشكو وما يضيره .

كنا نريد أن نراه مع الوفاء لسادته يقول فيما نابه في البأساء ، بقدر ما قال عندما أصاب في النعماء .

لِمَ لم نسمعه يتجه إلى الوليد يحدّثهُ مفيضاً عما أضاره وآذى قومه، ولِمَ نراه انكسر وتخاذل واختفت كلماته الأولى حين كان يخاطب عبد الملك فيُدلي ببلاء قومه ، وبدا الأخطل غير الأخطل في خطابه للوليد حين يقول :

وقد حلفتُ يميناً غير كاذبة بالله رب ستور البيت ذي الحُجبِ
وكل موفٍ بنذر كان يحملهُ مضرَّجٌ بدماء البُدن مُختضب
إن الوليد أمين الله أنقذني وكان حصناً إلى منجاته هربي
أتيتهُ وهمومي غير نائمةٍ أخا الحذار طريد القتل والهرَب
فآمن النفسَ ما تخشى وموَّلها قَدْم المواهب من أنوائه الرُّغب

(القدم : الكثرة والرغب : الكثيرة الواسعة)

وهم ذرى عبد شمس في ارومتها ... وهم صميمهمُ ليسوا من الشُّذَب
وكان ذلك مقسوماً لأوّلهم ... وراثةً ورثوها عن أب فأب

وإلى هذا قوله :

حلفت بمن تساق له الهدايا ... ومن حلّت بكعبته النذورُ
لقد ولدت جذيمة من قريش ... فتاها حين تحزبها الأمور
وأكرمَها مواطن حين تبلى ... ضرائبها وتختضب النحور
وقد علمت أُمية أن ضِغني ... اليها والعداةُ لها هريرُ

(ضغني ، أي ميلي وشوقي)

وأني ما حييت على هواها ... واني بالمغيب لها نصورُ
فمن يكُ قاطعاً قرناً فاني ... لفضل بني أبي العاصي شكور
ولكني أهاب وارتجيكم ... ويأتيني عن الأسد الزئير

ثم قولهُ :

لقد حلفتُ بما أسرى الحجيج له ... والناذرين دماء البُدْن في الحرَم
لولا الوليد وأسبابٌ تناولني ... بهنّ يوم اجتماع الناس بالثَّلم

(الثلم : موضع)

إذاً لكنت كمن أودى ووَدَّاه ... أهلُ القرابة بين اللحد والرَّجم

(وداه : غيبه)

أهلي فداؤك يومَ المحرمون بها ... مُقاسَمُ المال أو مُبغضٍ على ألم
إن ابن مروان أسقاني على ظمإٍ ... بسَجْلٍ لا عاتمٍ رِيثاً ولا خَذِم

(السجل : الدلو . والعاتم : المبطىء بالعطاء . والخذم : المقطوع)

الى أن يقول :

فهم هنالك خير الناس كلهم ... عند البلاء وأصلهم على الكرم
لولا بلاؤكم في غير واحدة ... اذاً لعمتُ مقام الخائف الزَّرم

(ازرم : المنقطع)

أسمعتكم يوم أدعو في مُودَّأة لولاكمُ شاع لحمي عندها ودمي

(المودأة المفازة)

أتستطيب هذا من شاعر تريده لرسالة ؟ وكم هو مفيد على هذا الاسراف في المديح والدعاء ؟

وقد يقول قائل : أشِرْ بغير هذا إن ملكتَه . ونكاد نملك الجواب حين نقول :

قد نؤمن أن الأخطل رأى الخير في أن يكون الأمر الى بني أمية ، وقد نراه رجا لآله الدَّعة حين وصل حبلهم بحبل الأمويين . فكان عليه مع هذا الرأي أن ينتصر له ، ولذلك الرجاء أن يمكِّن لأسبابه . فقال يُعزّ بقوله ولاة الحق ويُهوِّن من خصومهم ، وأثنى على من رجا لقومه عندهم خيراً فأطاب .

نحن لانلقاه هنا ، ولكنا نلقاه حين خذله الوليد وغمطه ماله وما لآله ونسي سابقتهم عنده . فوقف له الأخطل يستغفر عن غير ذنب ، ويعتذر دون جريرة ، في قول الخانع ، وذلة المستخذى . طامعاً أن ينصفه إسرافه ويردَّ عليه ما فقده إغلاؤه .

وكان الأخطل فيما يقال محبَّباً لما يدين به . وقد رأيت ما ناله مع عشيرته من حرج ، ورأينا نحن أن الوليد هدم للنصارى كنيسة . وارتفع لسان جرير يهنىء الوليد بما فعل ، أو قل يكيد للأخطل فيما يقول :

إن الكنيسة كان هدم بنائها قسراً فكان هزيمة للأخرم

فما عرض الأخطل لجرير في هذه ، ولا رفع صوته يبصر الوليد بمغبة ما فعل ، ولا قال في الحرج إلاَّ بلسان المستعتب الوجل .

إن قلت : خاف البطش والتنكيل . قلنا : قد فقد شجاعة الداعي ، وقوَّة جنانه .

وإن قلت : أراد أن يأخذ اللين الى غايته مطية . قلنا : فَرِّق لنا بين اللين والضعف .

ثم لنعد الى المدح نتعرَّفه ، وأحب أن أقفك على رأيي فيه . فأنا أعد المدح يَجْزي به الشاعر ، لا ليُجزى عليه . وفرق عندي بين كلمة أشكر بها وأخرى أسأل فيها الناس برًّا وعوناً .

وأين كان الأخطل من الرأيين . لقد حمَّله يزيد هجاء الأنصار ، فغفرناها له وقلنا :

شاعر يريد أن يهيّيء له ولقومه ويختار . وأمكن منه معاوية وكاد الأنصار ينالون منه ، فاستنقذه يزيد فشكره . فقلنا : واجب عليه أداؤه . وجرى على الأمويين يمدحهم ملتفتاً لقومه . فقلنا : أصاب حين عدّد لقومه مآثرهم .

ومالت به مائلة حين سلك بالمدح غير مسلكه وجعل منه مطيّة السائل أو وسيلة المستجدي . ثم خلص شعره للمدح بقوله في غير الملوك والملوك ، متخطياً القصد في الشكر الى الاسراف فيه . أتذكر قوله إلى شقراء وزوجها وكانا أكرماه وأنزلاه :

لعمرك ما لاقيت يوم معيشة من الدهر إلاّ يوم شقراء أقصرُ
حوارية لا يقرب الذم بيتها مطهرة يأوي إليها مطهر
وبيتٌ كظهر الفيل أكثر حشوه أباريقه والشارب المتقطر

فقلنا : زلّت بالأخطل القدم .

ما أردنا أن يكفر الناس بالنعم ، وأن يجحدوا الأيادي . وإنما أردنا أن يصان الشعر عن الابتذال . وما على الشاعر ، وهو من الناس ، أن يشكر بلسانهم في كلمة من كلامهم لا في بيت يسير عنه ويُسعد عليه ، يخص فيه المطعمين بالكثير مما لا ينهضون له .

وما على الشاعر ألاّ يمدح إلاّ مجازياً . فذلك أعف له وأدعى إلى أن يُسبق إليه .

وما على الشاعر أن يقصد فيما يقول جانب الحق والنصف والقصد . فالناس على نهجه وحيث اتجه .

*

وإذ قد أخذنا في المدح فبيّنا الرأي فيه فنحن إلى وقفة قصيرة مع الفرزدق وجرير نتم بها الحديث عن الثلاثة .

يكاد الشاعران يجمعهما رَسَن وتؤلف بينهما غاية ، لا يصرفك عن ذلك تلك الهائجة التي هاجت بينهما ، فما خلقت فيهما غير شر ولا أسمعتنا إلاّ إخاشاً شُغل الناس به حيناً ولا يزالون يشغلون ، فريقٌ يرى فيه زاداً يقوى به إن ضرمت ضارمة ، وفريق يسمعه أو يقرؤه لينساه ، وهم الذين يريدون ألسنتهم على العفة وأنفسهم على النقاء .

وليس شيء غير الهجاء فارقاً سوى تلك البارقة التي ومضت بُرَيهة ثم اختفت . نعني علوية الفرزدق التي لفظها أبياتاً ثم تاب عنها في قصائد .

وبعد هذا فالشاعران مدّاحان وقفا لملوك بني أمية بالمرصاد يمدحان من استخلف ويرثيان من مات . وان شئت فقل انهما خلعا رأيهما وهواهما وراءهما ، وجرى في رأي الأمويين وهواهم . تحس ذلك في موقف الفرزدق من آل المهلب ، فهم عند قوله :

لأمدحنّ بني المهلب مدحة غراء ظاهرة على الأشعار
مثل النجوم أمامها قمر لها يجلو الدجى ويضيء ليل الساري
ورثوا الطعان عن المهلب والقرى وخلائقاً كتدفق الانهار

ما رضي عنهم الأمويون وبسموا لهم . فاذا استحال رضى سادته سخطاً ، سخط هو الآخر وأسرع يقول في يزيد بن عبد الملك بعد صلب يزيد بن المهلب :

غلبتم الناس بالحق الذي لكمُ عليهمُ وبضربٍ غير تعذير
لقد عجبت من الأزدي جاء به يقوده للمنايا حيْنَ معزور
حتى رآه عبادُ الله في دَقَلٍ منكّساً وهو مقرونٌ بخنزير

(يشير الى ما كان حين صلب يزيد بن المهلب وعلق معه خنزير وزق خمر)

*

وتراه راضياً عن عمر بن هبيرة ما ضمن ابن هبيرة الرضى عند أوليائه ، فيقول فيه الفرزدق :

لقد علمت وعلمُ المرء أصدقه من عنده بالذي قد قاله الخبر
أن ليس يجزىء أمر المشرقين معاً بعد ابن يوسف إلاّ حية ذكر
أغر يستمطر الهُلاكَ نائله في راحتيه الدم المعبوط والمطر
وكم نحاك من الآباء من ملك به لذبيان كان الورد والصدر
أنت رجائي بأرضي انني فرق من واسط والذي نلقاه ننتظر

ثم تعبس الوجوه فيعبس وجه الفرزدق ويجد قلباً ناسياً ولساناً طيعاً فيقول فيه :

إن الفزاري لا يشفيه من قرم أطايب العيْر حتى ينهش الذكرا
لو أنها ضربت في القبر ميتها بنو فزارة بالجُردانِ لانتشرا
لو انها منعت منه وقد طبخت أمُّ الفزاري أير العير لانتحرا

وترى جريراً مع هذا النهج إلاَّ ما تنكر فيه الفرزدق لمن صفا له ، يفرط في المدح حتى لتكاد تحس أن قلبه بالممدوح عالق، وان هوى ضمه إليه، فيمضي الممدوح وما جفَّ تراب قبره ، ولا جفَّ معه مداد ما قيل فيه ، وإذا بجرير على باب الخلَف في مثل ما كان مع السلَف .

ودرَب الرجل مع هذا أن يكون صاحب رأي ، فهو مع ما عددنا عليه ، لم يكن مطعوناً عليه نزعته ، ولم يوزِّع هواه مع هوى غيره .

ونحسب أن الهجاء شغلهُ أن يلتف حول فكرة، وأن مدحه هذا كان عدَّة له في هجائه. ولعله أراد أن يقوى بممدوحيه ويعزّ بهم على خصميه .

وقد ترى رأينا حين تسمع أن ثلثي شعر جرير كان في الهجاء ، والثلث الباقي كان للمدح والفخر والنسيب والوصف والعتاب والشكوى والرثاء .

وأنه هجا الأخطل بما يدنو من خمس وعشرين قصيدة ، وخصَّ الفرزدق بما يصل إلى المائة .

هذا بال بلبلة الخصومة فعاش لها ، ولم يصف إلاَّ في القليل لهذا الذي حدَّثناك عنه .

وبعد فما كان أحوج هذا العصر الى غير هؤلاء من الشعراء ، ينصحون ولا يمدحون ويبصِّرون ولا يقرظون ، ويرون ثم يملكون بشجاعة على القول .

أما هذا النفر الذين تمنى بهم الأمم ، ويصاب بهم السادة ، والذين لا همَّ لهم إلاَّ أن يزينوا البطش ، ويجملوا النكاية ، ويمتدحوا سوارات الغضب . فما أشقى الأزمنة بهم .

أحسب لو أن الألسنة التي زينت للأمويين إنكاءهم في خصومهم ملكت أن تخفف من غلوائهم وتردهم الى حلم ما باء الأمويون الى نكال تجرَّعوه غصصاً على أيدي العباسيين حين انتهى إليهم الأمر ، ولما سمعوها مُرَّة على لسان سديف يخاطب السفاح :

جرّد السيف وارفع العفو حتى ـ لا ترى فوق ظهرها أمويَّا

أبو تمام والبحتري

(١٩٢ — ٢٣١) — (٢٠٦ — ٢٨٤)

هذان ديوانان لشاعرينا : أبي تمام حبيب بن أوس ، والبحتري الوليد بن عبيد بن يحي . وكلا الرجلين طائي . أدرك ثانيهما أولهما وما أن أنشده من شعره حتى قال له :

قد نعيتني إلى نفسي ، فما يخلدي أن أعيش وقد شبّ في طيء مثلك. ويروون أن أبا تمام لم يُمتّع بعدها غير عام .

فأنت ترى أن الحياتين متصلتان ، أو أن حياة البحتري امتداد لحياة أبي تمام ، فما ودّع شاعر حتى قام في إثره شاعر ، على الطيّ والغرار ، بدأ من حيث انتهى سلفه ، ومضى وكأنه الصدى ، يصل ما انقطع . ونحن في تفصيل ذلك آخذون .

*

فقد نشأ أبو تمام يمدح المأمون [1] أول خليفة لقي . بقصيدته التي يقول فيها :

الله أكبر جاء أكبر من جرت فتعثرت في كنهه الأوهامُ
من لا يحيط الواصفون بوصفه حتى يقولوا وصفُه إلهام
من شرّد الإعدامَ عن أوطانه بالبذل حتى استطرف الإعدام

(الاعدام : الفقر . واستطرف : صار مالا طريفاً ، أي جديداً) .

وتكفّل الأيتامَ عن آبائهم حتى وددنا أننا أيتام
يتجنب الآثامَ ثم يخافها فكأنما حسناته آثام
إن المكارم للخليفة لم تزل والله يعلم ذاك والأقوام
كتبت له ولأوّليه قبله في اللوح حتى جفّت الأقلام

---

(١) ولي المأمون من سنة ١٩٨ — ٢١٨ هـ

فبنو أبيك على نفاسة قدرهم فيهم وإنهم هُمُ الأعلام
متواطئو عقبيك في طلب العلا والمجد ثَمتَ تستوي الأقدام

يمضي المأمون بهذه وأبو تمام لم يَعدُ نصف العقد الثالث إلاّ بقليل . ويخلفه المعتصم ؛ ويمتد حكمه الى سنة ٢٢٧ . وتعمر تلك السنين الثمانية ، بفتوح ثمانية فيجد أبو تمام مجال القول فسيحاً . فهو هنا يهنئه بفتح عمورية :

السيف أصدق إنباءً من الكتب في حدّه الحد بين الجِد واللعبِ
بيض الصفائح لاسود الصحائف في متونهن جلاءُ الشك والريب
فَتْحُ الفتوح تعالى أن يحيط به نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخطب
فتحٌ تفتّحُ أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القُشب
يا يومَ وقعة عموريّة انصرفت عنك المنى حفلاً مَعسولة الحلب

(حفلا : مجتمعة) .

ما ربع مية معموراً يطيف به غيلان أبهى رُبى من ربعها الخرَب
خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تُنال إلاّ على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رَحم موصولة أو زمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدرٍ أقرب النسب

*

وهو هنا يهنئه بإحراق الأفشين :

الحق أبلج والسيوف عَوارِ فحذار من أُسد العرين حَذارِ
ملكٌ غدا جارَ الخلافة منكمُ والله قد أوصى بحفظ الجار

. . . . . .

لله من نار رأيتُ ضياءَها ضاق الفضاء به على النظّار
مشبوبةٍ رُفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوءها للساري
صلّى لها حيّا وكان وقودَها ميتاً ويدخلها مع الفجّار

يا مشهداً صدرت بفرحته الى أمصارها القصوى بنو الأمصار
رمقوا أعاليَ جذعه فكأنما وجدوا الهلال عشية الإفطار
واستنشقوا منه قُتاراً نَشْرُه من عنبر ذفر ومسكٍ داري

(داري : نسبة الى دارين بلد معروفة بالمسك)

فالأرض دارٌ أقفرت ما لم يكن من هاشم ربٌّ لتلك الدار
سور القُران الغُرُّ فيكم أُنزلت ولكم تصاغ محاسن الأشعار

*

وهو في هذه يهنئه بأخذ بابك :

آلت أمور الشرك شرَّ مآلِ وأقرَّ بعد تخمّط وخيال

(التخمط : التكبر)

غضب الخليفة للخلافة غضبة رخصت لها المهجات وهي غوالِ
فلأزربيجان اختيال بعد ما كانت معرَّس عبرة ونكال
أطلقتها من كيده وكأنما كانت له معقولةً بعقال

. . .

يا يوم أرشق كنت رشق منيّة للخرميّة صائبَ الآجال
أسرى بنو الاسلام فيه وأولجوا بقلوب أُسد في صدور رجال
ما طال بَغْيٌ قطُّ إلاَّ غادرت غلواؤه الأعمارُ غير طوال
فاسلم أمير المؤمنين لأمة أبدلتها الإمراع بالإمحال
أمسى بك الاسلام بدراً بعد ما مُحقت بشاشته محاق هلال
ألبسته أيامكَ الغُر التي أيامُ غيرك عندهنَّ ليالِ

هذا سوى مدائح خصه بها ، أطنب فيها وأشاد .

*

ويخلف الواثقُ المعتصمَ عامَ وفاته سنة ٢٢٧ فينهض إليه أبو تمام يهنئه ويعزيه بأبيه:

ما للدموع تروم كل مَرام والجفن تأكلُ هجعةٍ ومنامِ

يا تربةَ المعصوم تُربُك مودَع ماءَ الحياةِ وقاتلَ الإعدامِ
هدمت صروف الدهر أطول حائط ضُربت دعائمه على الإسلامِ
ما دام هارونُ الخليفةَ فالهُدى في غبطةٍ موصولةٍ بدوامِ
إنا رحلنا واثقين بواثق بالله شمس ضحى وبدر تمامِ
ما أحسب القمر المنير إذا بدا بدراً بأضوأ منك في الأوهامِ
إن الخلافة أصبحت حجراتها ضُربت على ضخم العطاء هامِ

وغير المأمون والمعتصم والواثق أمراء ووزراء وقوّاد وسادة، أكاد أحصي منهم ثلاثين؛ منهم أحمد بن المعتصم، وخالد بن يزيد الشيباني، والحسن بن سهل، وأبو سعيد الثغري، وابنا وهب: الحسن وسليمان، ومحمد بن الهيثم، وأحمد بن أبي دواد، والرافعي موسى بن ابراهيم.

قال في بعضهم، مادحاً ومعاتباً ما يُربي على الأربعين قصيدة، وأظنه أبا سعيد الثغري. وفرّق الباقي من مدائحه بين بقيتهم وفق ميله وهواه.

*

ثم هو بعد هذا له مراثيه التي لم يبخل بها على الكثرة ممن وصلته بهم صلة.

وتجيء بعد مراثيه أهاجيه، وما بنا حاجة إلى أن نقف عندها طويلاً. وما يعنينا منها أن الرجل مدح مَن هجا، وهجا بعض من مدح، وما هو بمُليم. وحياة كل انسان حافلة بمثل هذا، وأبو تمام منا معشر الناس. ولكنه من النفر المعدود عليهم كلماتهم. وقد كان في مكنته أن يمضي دون هذا، فيحبس مديحه عمن هجا، وهجاءه عمن مدح، ولكنه لم يفعل.

وقد مرَّ بك حديث أبياته في إحراق الأفشين، ويجمل بنا أن نورد لك بعض قوله في مدحه:

بذَّ الجلاد البُذَّ فهو دفينُ ما إن به إلاَّ الوحوش قطينُ
(البذ: موضع)

لم يقرهذا السيف هذا الصبر في هيجاء إلاَّ عزَّ هذا الدين

قد كان عذرةَ مغرب فافتضها بالسيف لَيلَ المشرق الأفشين
ما نال ما قد نال فرعونٌ ولا هامان في الدنيا ولا قارون
فليشكر الاسلام ما أوليته والله عنه بالوفاء ضمين

وإن لم يكن قد مرَّ بك شيء مما مدح به مالك بن طوق ، فسنذكرك هنا بقوله فيه :

يا مالك ابن المالكين ولم تزل تدعى ليومٍ نائل وعقابِ

كي نعقب عليه بهجائه له :

فرحلت منقطع القرينة لم أرع على رسم ولا طَلَلِ
متمسكاً من مالك بقوًى ضعفت وسائلها عن الأمل
فلأغربنَّ به سوائم سر ح الشعر من رجزٍ ومن رمل
متوجهاً لهجائه أبداً وهجاؤه أمرٌ عليَّ ولي

هذا مالكم ، ولأبي تمام فيه أكثر من خمس مدائح . وثمَّ رجل آخر نختم به حديث الهجاء لا الحديث عن أبي تمام ، هو عياش بن لهيعة ، فقد قال فيه يمدحه :

رأيتم لعياش خلائق لم تكن لتكمل إلاَّ في اللباب المهذَّبِ
له كرم لو كان في الماء لم يغض وفي البرق ما شام امرؤ برق خلَّب

وقال فيه :

لي حرمة بك أضحى حق نازلها وقفاً عليك فدتك النفس محبوسا
كم دعوة لي إذا مكروهة نزلت واستفحل الخطب يا عيَّاش يا عيسى
لله أفعال عيَّاش وشيمته تزيده كرماً إن ساس أو سيسا

ثم يتنكر له فتسمع إليه يقول :

ستعلم يا عيَّاش إن كنت تعلم فتندم إن خلاَّك جهلك تندم
أبى لك أن تأبى المخازي كلها أبٌ أندرميٌّ وجدٌّ معلم
وقفت عليك الظن حتى كأنما لديك الغنى أو ليس في الأرض درهم

ويقول فيه :

صدِّق مقالتـه إن قال مجتهداً لا والرغيف فذاك البر من قسمه

وإن هممت به فافتك بخبزته فإنها قطعة من لحمه ودمه

* * *

ثم يموت أبو تمام ، ويموت بعده الواثق بعام . وينهض بالأمر المتوكل ، فيخلو به البحتري خمسة عشر عاماً ، هي سنو حكمه ، مادحاً ، ويكادون يحصون له في ذلك أربعاً وعشرين قصيدة ، جُلّها من المطولات ، هذا عدا مرثية لم ينس في آخرها أن يهيء لصلته بمن سيخلفه في قوله :

وإني لأرجو أن ترد أموركم الى خلف من شخصه لا يغادره
مقلّب آراء تخاف أناته إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره

*

ويخلف المستنصر أباه المقتول . ولكن الثائرين بأبيه لم يمهلوه إلاّ ريثما يُعدّونها لهُ شربة مسمومة . فمات بها . وما أنِس بالحكم غير أشهر ستة . وقد وجدنا للبحتري فيه قصيدته التي يقول له فيها :

تبسّم عن واضح ذي أشر وتنظر من فاترٍ ذي حَوَر
ولما ادلهمت دياجيرها تبلّج فيها مكان القمر
بحزم يجلّي الدُّجى والعَمى وعَزم يُقيم الصَّغا والصَّعر

(الصغا : الميل . والصعر : ميل في الوجه)

ولكنا نجده يتخلف عن رثائه . ونجده يمدح المستعين بعده ولا يشير الى المنتصر وما ناله ، في قليل ولا كثير . بل نراه يقول للمستعين :

بقيت مسلّماً للمسلمينا وعشت خليفة لله فينا
فقد أنسيتنا بذلاً وعدلاً أبوّتك الهُداة الراشدينا
أراد الله أن تبقى معاناً فقدّر أن تُسمّى مستعينا

وتبلغ مدائحه فيه الأربع ، وتقصر حتى تكاد القصيدة تُعد أبياتها دون العشرة ويشغب الموالي على المستعين ، فيشتري منهم حياته بنزوله عن الملك لأخيه المعتز بعد سنين ثلاث وبضعة أشهر . ويحمل المعتز العبء محتالاً في تدبيره . ويمد يد الصفح لمن

أساءوا الى أخيه . وعلى البحتري أن يحتال هو الآخر ، فالمستعين لم يمت ، ولكن الأمر خرج من يده ، والخليفة الجديد يده في يد أعدائه ، حيلةً منه أو رأياً رآه . فماذا يقول البحتري وهو القائل أمس ما مرّ بك . اسمع اليه وهو يقول للمعتز :

ألا هل أتاها أن مظلمة الدُّجى تجلَّت وأن العيش سُهِّل جانبه
وأنّا رددنا المستعار مذمَّما على أهله واستأنف الحق صاحبه

يريد بالمستعار : المستعين . ولكن أيتركه عند هذه أم يزيده من فضله ؟ هذا ما سيتجلى لك في قوله :

متى أمَّل الدَّيَّال أن تُصطفى له عرى التاج أو تُثنى عليه عصائبه
فكيف ادَّعى حق الخلافة غاصبٌ حوى دونه إرثَ النبي أقاربُه
بكى المنبر الشرقي إذ خار فوقه على الناس ثورٌ قد تدلت غباغبه

وما نريد أن نحزن النفوس الوفية ، فنضم الى هذا غيره .

*

وينتهي أمر المعتز على ما انتهى اليه أمر أخيه من قبل فيعزل ، ثم يراد به الشر فيقتل ، ويضطلع بهذا العبء المهتدي . فلا يلتفت البحتري الى رثائه ويتجه للمهتدي يقول :

بارك الله للخليفة في الملـــك الذي حازه له المقدار
رُتبة من خلافة الله قد طا لت بها رِقبةٌ له وانتظار
طلبتهُ فقراً إليه وما كا ن له بها ساعةً إليها افتقار
علم الله سيرة المهتدي باللـــه فاختاره لما يختار

*

ويشاء الله أن يقضي المهتدي مقتولاً هو الآخر ، وينهض المعتمد بالأمر ، فيخرج علينا البحتري في ثياب المهنئ ، وما لبس للحداد ثوبه ، فيقول :

لقد أمسك الله الخلافة بعد ما وهت وتلافى سربها أن ينفَّرا
بمعتمدٍ فيها على الله أسندت إليه فألفتهُ الرضى المتخيَّرا
ولما بدا من سُدَّة الملك طالعاً ذكرنا به خير الخلائق جعفرا

وغيرَ الملوك مدح البحتريُّ فأطال . وخصَّ بعضهم بأكثر من مدحة . وكان ذلك شأنه مع ابن المدبر وابن ثوابة وغيرهما .

وفعل فعلة أبي تمام فالتقى مدحه وهجاؤه عند بعض من قال فيهم . ويحضرني شاهدي على ذلك قوله في ابن ثوابة يمدحه :

أناشد الغيث كي تهمي غواديه ... على العقيق وإن أقوت مغانيه
على محل أرى الأيام تضحك عن ... أيامه والليالي عن لياليه
بنو ثوابة أقمارٌ إذا طلعت ... لم يلبث الليل أن ينجاب داجيه
يقفون هَدْيَ أبي العباس في سنن ... يرضاه سامعه الأقصى ورائيه

. . . . . .

وباخلين سلونا عن مطالبهم ... سلوان صبٍّ تمادى هجر مصطبيه
تكشفنا عنهم نعمى فتى شرفت ... أخلاقه ونما بالعُرف واديه
موفَّر القدر لم تغمض مهابته ... ونابهَ الذكر لم تُغضض مساعيه

ثم قوله فيه يهجوه :

ترون بلوغ المجد أن ثيابكم ... يلوح عليكم حسنُها وبَصيصها
وليس العلى دَرَّاعة ورداؤها ... ولا جُبَّة موشيَّة وقميصها

* * *

هذان هما الشاعران أبو تمام والبحتري ، لا ينقصكما عنهما إلاَّ القليل مما يتصل بما أوردنا . قالا كثيراً ، ولكن في همٍّ واحد ، هو أن يُعرِّفا بقُدرتهما على القول ، وتجويدها للعبارة ، وما رزق الله من خيال ، وآتى من سعة أفق .

وقد مضى أبو تمام مبكراً ، وما عاصر غير المأمون والمعتصم من الخلفاء ، ثم تلك الكثرة من السادة والقوَّاد .

وقد رأيناه في كل ما صدر عنه بارياً في غير رأي له ، ولا فكرة استقامت عنده عن الحياة التي يعيش فيها . وما عدا أمرُه عن أن يعيش سعيداً لسانه لكل حادث أو طارئ يقول فيه واصفاً مفصلاً ما كان .

وكذلك كان شأنه مع السادة والقرّاد والأصحاب، مع تفرقة في المنازل والمراتب. وعلى قدر برّهم به كان شعره فيهم.

وقد ذكرنا لك شيئاً عن المدح ونصيب الشاعر منه في كلمتنا عن الأخطل والفرزدق وجرير، ونرى أن أبا تمام كان الى هؤلاء أدنى وأربى عليهم فيما أخذناهم عليه.

*

وما كان البحتري — كما قلنا في البدء — غير صدى لأبي تمّام. جرى في سبيله ولزم ما لزمه سلفه. وقد يكون في مضي أبي تمام مجملاً ما يجعلنا معه متفقين عاذرين، وإن كانت الأربعون غير قليلة على الباحثين ليعجموا عود الحياة وينفذوا الى ما تنطوي عليه. فيكون لهم معها رأي وتوجيه.

ولكن ما عُذرنا للبحتري وقد بلغ من العمر أرذله. وشُغلت الدولة أيامه بحوادث جسام. أقساها ذلك الشغب الذي استطالت اليه فيه الى الملوك، نعرف أن الموالي الذين جلبهم المعتصم كانوا نواة هذا الشر. ولكن هذا وإن كان أكثر الشر فليس كله. فالأمور تشير الى أن سياسة الدولة كانت في اضطراب، وأن الفساد تعيب بأصولها.

فأين كان شاعرنا؟ هو في شغل عن الحديث عن هذا بمدح ينال به رضى وجاهاً، وهجاء يخوف به خصومه، ويشفي حسيكة نفسه.

*

وما أحب أن أختم الحديث عن البحتري دون أن أقول إن تفريطه في هذا الواجب وكان بملكه، يقفه غير بعيد مع الذين أساءوا وأثموا. وهل لا ترى الإثم فيمن يرى الموالي الذين زعزعوا أركان الدولة يوماً أعداء فيقول فيهم:

ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي ... ترى الفاتك العجلان كيف أساوره

ثم يخيم ويجبن حين يرى أمرهم استشرى فيزلف اليهم غير ناطق عن دين:

فيقول:

أما الموالي فجند الله همّلهم ... إن ينصروك فقد قاموا بما احتملوا

بقاؤهم عصمة الدنيا وعزهم ... سترعى بيضة الاسلام منسدل

ردوا المَـعار وتابوا عن خطيئتهم فيه إلى الله والإثم الذي فعلوا
خطيئة لم تكن بدعاً ولا عجباً قد خطئت أنبياء الله والرسل

*

اللهمَّ هذا ضرب من الشعراء، يُراد أحدهم على القول فيقول، ويُؤجر للامر وضده فلا يجد حرَجاً، ما دام يملك ببيانه أن يصور الباطل حقًّا والحق باطلاً. وما أحسب أمماً تشول كفَّتها ويضطرب نظام الأمر فيها بغير هؤلاء الذي يؤمنون بغير ما يقولون، أو لا يملكون مع الإيمان شجاعة على القول والإفصاح.

المتنبي

٣٠٣ — ٣٥٤

إن شئتَ أن نذكّرك به ، فهو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجُعفي . حمل أبوه الماء للناس في الكوفة ، لمحلّة بها اسمها كندة . وُلد بها المتنبي فعرف بها فقيل له : الكندي .

وكان الغلام على فطنة ، والأب على أُهبة ، فغشّي الفتى مجالس العلماء ، يحدوه ميلُه ويعينه عون أبيه الى أن أفاد ما أراد ، وأصَبَّ على ما أحب.

أما عهده فهو ما تعرف ، خلافة عليلة تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وولاة نهّازون غنّامون اقتطعوا لأنفسهم ما هم عليه ، فشتّ الأمر بعد التئام ، ووهنت الحال في هذا الانقسام . ونشطت للإسماعيلية دعوة ، وهبّت للقرامطة ثورة . فأحيط بالدولة من كل مكان ، وتوالت عليها النُّذر . وآن أن ينهار ذلك البناء الشامخ الذي طاول العلياء فطالها .

قد أُومن أن تلك الدولة التي أظلها يوماً عَلَم واحد ، وغبرت دهراً يدبّر سياستها البيت العباسي . كان من الخير أن تعيش ، لكل ناحية منها استقلالها بأمورها ، لها ملكها أو رئيسها ، وبيدها سياستها ونظامها ، وهي بأخيرة تجتمع مع هذا البيت أو غيره على أمر يكفل لتلك الأمم والدول القوة والشوكة ، فلا تضار ناحية في غفلة عن الأخرى ، ولا يراد بطرف سوء إلاّ كانت الأطراف الأخرى في عونه ونجدته.

ولكن الذي لا أومن به أن تنحل هذه العُقدة المستمرة إلى قوًى واهية ضعيفة لا اتصال بينها ، ولا تملك إحداها أن تصمد لعدوان ، أو تقف لأهون المغيرين شأناً . وهي مع هذا تأبى إلاّ أن تحيا على غير صلة وضامّة .

*

ذاك حديث لا تعدّه عليّ نقمة مصدور وفرجة مكروب ، ولكني أردته وأردت رأيي فيه لأناقش المتنبي الحساب في حدوده .

* * *

صدق أو كذب تنبي المتنبي ، ودعوته نفراً من فتيان الكوفة الى الايمان به نبيّاً. فقد دخل الفتى السجن على مُنكرة شاعت له ، هي عندي نزوة دينية ، أو أشبه بتلك التي تملك رؤوس اليافعين مستهل حياتهم الفكرية فتكون مرة خروجاً على القواعد ، ومرّة جحوداً للعقائد . أما أنها كانت عند المتنبي نزوة ، وأن معجزتها كانت تلك الآيات المهلهلة النسج التي حفظوها له « والنجم السيار ، والفلك الدوّار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار ، فامض على سننك واقفُ أثر من قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه . وضلّ عن سبيله » فذلك ما لا يليق بعقل ، سيما وأن القوم عرب ، وأن المعجزة شيء أريد محاكاة القرآن

ونحن إذ نذكر له هذه نريد أن نعرّفك به فتىً غير الفتيان ، يملك أن يقول وأن يدعو لما يقول . وكانت أولى ظواهر تلك النفس . ولكنه ما ضمه السجن حتى برأ مما فعل . وقال يستعطف الوالي :

دعوتك لما برأني البلاء ... وأوهن رجليّ ثقلُ الحديد
وقد كانَ مشيهما في النعال ... فقد صار مشيهما في القيود
تُعجّل فيّ وجوب الحدود ... وحدي قُبيل وجوب السجود

(أي انه لما تجب عليه الصلاة فحل عليه الحد)

فدلّنا على مدى صبره على أمره وجلده لما يحمل .

*

وبعدُ ، فقد رأى المتنبي أن يبدأ حياته شاعراً مع الشعراء ، فهم يقصدون الملوك والأمراء . ويأوون إلى البلاطات ، فليتصل حبله بمن أحب . فما أكثرهم كثرة . وكان فيمن اتصل به معاذ بن جبل في اللاذقية . ولكنه ما فتىء أن برم به فرحل عنه الى سيف الدولة ابن حمدان .

وكان ببـاب هذا الملك الحلبي جمهـرة من الشعراء اختص بهم ، منهم أبو فراس ، والسري الرفاء ، والنامي ، والببغاء ، والوأواء .

هنـا استقرّت تلك النفس الوثابة حيناً من الدهر تصبح وتمسي لربها سيف الدولة حامدة شاكرة ، في كل أوبة وروحة ، وقومة وقعدة . وما نريد أن نذكر كثيراً ، فثلث الديوان لابن حمدان ، وإليك شيئاً من ذلك . فهذا قوله يهنئه بعيد الأضحى :

هو البحر غُص فيه اذا كان ساكناً ... على الدُّر واحذره اذا كان مزبدا
تظل ملوك الأرض خاشعة له ... تفارقه هلكى وتلقاه سجّدا
وتجبي له المالَ الصوارمُ والقنا ... ويقتل ما تحيي التبسم والجدا
هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده ... وعيد لمن سمّى وضحّى وعيّدا
ولا زالت الأعياد لُبسك بعده ... تسلّم مخروقاً وتُعطى مجددا

ثم يذكر نفسه فيستنصره على حساده :

أزل حسد الحُسّاد عني بكبتهم ... فأنت الذي صيّرتهم لي حُسّدا
إذا شدّ زندي حسنُ رأيك فيهم ... ضربتُ بسيف يقطع الهام مُعمدا
أجزني اذا أنشدت شعراً فإنما ... بشعري أتاك المادحون مردّدا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني ... أنا الطائر المحكيُّ والآخر الصدى
وقيدت نفسي في ذراك محبة ... ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا
إذا سأل الإنسان أيامه الغنى ... وكنت على بُعد جعلناك موعدا

هذا قليل يدل على كثيره . كان همّ الشاعر في كله أن يستخلص الممدوح لنفسه ، ليجتمع اليه خيره ، أثرة منه أو وثبة — إن شئت سميتها — أو طموحاً

*

ويجد المتنبي على سيف الدولة لأنه لم يكن معه على ابن خالويه فيتركه الى دمشق ثم الى مصر حيث كافور الإخشيدي .

وكان كافور — وهو من تعلم — حريص على أن يضم بلاطه ما تضمه البلاطات ، وأن يرى بين يديه صفوة من الشعراء يقولون فيه فيشيع له كما شاع لغيره .

*

وأحب ألاَّ أمضي عن هذه دون أن ألفتك الى ما قدَّرَ به الملوكُ الشعراءَ ، فقد رأوا فيهم شيئاً يجملون به ، فكما يجلب الملك اليه المختارَ من الرياش يبدو فيه قصره رائقاً ، فتجري به الأحدوثة المستطابة ، كذلك عليه أن يضم اليه تلك الأبواق الناطقة ، وعليه أن ينتقي أعذبها صوتاً وأقدرها صوغاً . فإن فعل فهو آمن أن تَحُطَّ به على الجوزاء ، ما ملك معيناً من ذهب ويداً كريمة سخية.

ويحلُّ المتنبي بساحة كافور، وهو يطمع في الكثير ، فكافور راغب فيه، ثم هو واثب على المُلك فمنتزعه من ابن سيِّده بعد أن سقاه السم . فرجا هنا المتنبي ما لم يرجه عند سيف الدولة وظن بالأيام خيراً ، وبدأ يبيع ليشتري ، ويعطي ليأخذ ، ومدح كافوراً بقصائد منها قوله :

أقِلَّ اشتياقاً أيها القلب ربما ... رأيتك تصفي الود من ليس صامتا
خُلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبى ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا
ولكن بالفسطاط بحراً أزرته ... حياتي ونصحي والهوى والقوافيا
وجُرداً مددنا بين آذانها القنا ... فبتنَ خفافاً يتبعنَ العواليا
تجاذب فرسان الصباح أعنة ... كأن على الأعناق منها أفاعيا
قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقلَّ السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه ... وخلت بياضاً خلفها ومآقيا
أبا المسك ذا الوجهُ الذي كنت تائقاً ... إليه ، وذا اليوم الذي كنت راجيا
أبا كل طيب لا أبا المسك وحده ... وكل سحاب لا أخص الغواديا
يُدل بمعنى واحد كل فاخر ... وقد جمع الرحمن فيك المعانيا
إذا كسب الناس المعالي بالندى ... فإنك تعطي في نداك المعاليا

ويكشف له عن بعض أطماعه عنده فيقول :

وغير كثير أن يزورك راجلٌ ... فيرجع ملكاً للعراقين واليا
فقد تهب الجيش الذي جاء غازيا ... لسائلك الفرد الذي جاء عافيا

وبغير هذه مدح المتنبي كافوراً، ولبث يسأل وكافور يمطل. ولم يجد الأمور الى خير، فخرج عنه هارباً، وأرسل كافور في طلبه فلم يدركه. وكأنه عزّ عليه أن يقول في كافور ما قال أو أن يخيب ظنه ويسوء تقديره ويرجع بصفقة المغبون، فاهتمت نفسه، فقال يهجوه، وكان يوم ارتحل يوم عرفة:

عيدٌ بأية حالٍ عدتَ يا عيد ... بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ
أما الأحبة فالبيداء دونهم ... يا ليت دونك بيداً دونها بيد
يا ساقيَّ أخمرٌ في كؤوسكما ... أم في كؤوسكما همٌّ وتسهيد
أصخرة أنا مالي لا تحركني ... هذي المدام ولا هذي الأغاريد
إني نزلت بكذابين ضيفهم ... من القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدي وجودهم ... من اللسان فلا كانوا ولا الجود
لا يقبض الموت نفساً من نفوسهم ... إلاّ وفي يده من نتنها عود
أكلما اغتال عبدُ السوء سيده ... أو خانه فله في مصر تمهيد
صار الخصيّ إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبدٌ والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بَشِمن وما تفنى العناقيد
العبد ليس لحرٍّ صالحٍ بأخٍ ... لو أنه في ثياب الحر مولود
لا تشتر العبد إلاّ والعصا معه ... إن العبيد لأنجاسٌ مناكيد
ما كنت أحسبني أحيا الى زمن ... يسيء بي فيه عبدٌ وهو محمود

*

ولم ينزل المتنبي حلب أنفة منه أن يعود الى سيف الدولة عن غير دعوة أو شيء آخر، فقصد بغداد ومكث فيها حيناً تركها بعده الى ابن العميد وزير ركن الدولة. ولبث في ظله يمدحه ويثني عليه.

حتى اذا ما دعاه عضد الدولة يستزيره، ودّع الشاعر هذا الى ذاك، حيث الأمل أقوى والرجاء أشد. وقد نال المتنبي عنده كثيراً فمدحه وأطنب. ولكنه آثر العودة الى بغداد

وفيما هو عائد اليها كان مقتله عند دير العاقول ، بالقرب من النعمانية

***

كن أنت الشاعر وسلْ الأيام أن ترجع بك الى تلك الفترة ، أو أن تنقل تلك الفترة بما فيها اليك وحدثنا حديثك . كأني بك تلقي اليّ :

لا بارك الله لي في لسان ولا قول إن لم أجردها لتقويم المعوج من تلك الحياة التي لم تطلع لها شمس الاّ على انهيار ، ولم تغب الاّ على مثله.

ومالي أكدُّ ذهني وأجهد مقولي في إطراء أو هجاء ، لغُنم أريده ، وأمل أنشده ، والمجتمع من حولي يعوزه كلمة ويتطلع الى داعية . ومالي يغريني الذهب وتستهضني المناصب والمجتمع من حولي أغنى وأبقى .

وأين ما يذكرني الناس به من شمم ، وقد وفدت على كافور طامعاً ، ومدحته كاذباً .

وأين الشمم من نفس تستهويها الدعوة ذات المتاع فتهجر ابن العميد إلى عضد الدولة.

ليقل الناس إن المتنبي شاعر ، ولكنهم لن يقووا على أن يقولوا أنه حمل عبئه في الحياة لذلك المجتمع الذي يعيش بينه، فأشار هنا ونصح هناك . ولكنه جرى وراء حظه يريد أن يدركه كاملاً .

ويبقى له ما صدر من أبيات جرت مجرى الحكم ، صدرت عنه في بعض ما ألم ، فلمعت في النفوس صقلاً وتهذيباً .

وهذا شيء نرغب في الكثير منه لحماية الأنفس من الزلل . ولكنه إلى جانب ما كنا نرجوه من المتنبي قليل .

لقد نبت المتنبي حيث الكثرة من الناس يعيشون لأنفسهم ، يثب الطامعون من الولاة والجند الى ما يطمعون فيه، فينالون في غير خوف ولا حذر . فعاش المتنبي لما عاشوا له ، ينتصر بإسلامه ويبغيه سلاحه الى ما يريد ، ، فخانه الجد وفقد الكثير من السياسة .

هذا هو المتنبي الطامع ، وما عليه اذا كان غير شاعر ، أو قل اذا كان شاعراً لغير رسالة .

أما رسالته فما نحن الى تبيينها وتحديدها، ولكننا جهدنا أن نرى من شعره شيئاً يلتفت فيه الى ما حوله مما لايعنيه، ولكن يعني الأمة التي هو منها، فلم نجده.

وفي بعض ما هجا به كافوراً شيء من هذا الرأي، لو أنه صدر عنه لغير ترة وثأر، ثم في بعض حكمه شيء آخر ولكنه كان يريد نفسه. ولو أنه لم يضق بما ناله. تُرى أكان يضيق بما نال الناس فيقول؟

نريد أن يحمي الشاعر نفسه عن التبذل، ونريد أن تكون البيئة التي يعيش فيها الشاعر هي أفقه، يعنيه أمرها، إن خيراً وإن شرًّا، فيلتفت إليها جاهداً فيما ينهض بها، ونريده بعد ذلك شجاعاً جريئاً لا يهاب شيئاً.

أبو العلاء المعري

وُلد أبو العلاء أحمد بن عبد الله بمعرّة النعمان — من أعمال حلب — سنة ٣٦٣ هـ وكُفّ بصره عن علّة ، لم تكن غير الجدري ، سنة ٣٦٧ هـ

وكانت له الى بغداد رحلة سنة ٣٩٨ هـ ، ومنها عودة ، وما جاوز مكثه فيها سنة وسبعة أشهر .

ثم لزم المعرّة لم يبرحها ، وضمه منزله الى أن خرج منه محمولاً الى رمسه سنة ٤٤٩ هـ

وكان للرجل رأي في الحياة تعرفه . فقد عاش نباتيًّا زاهداً قانعاً باليسير عمراً يقدره من أدركه بخمس وأربعين سنة .

وتضطرب الرواية عن دين أبي العلاء ، فهو شاكٌّ أو ملحد هنا ، مؤمن نقي السريرة هناك .

هذا ما نريده لك الآن عنه . أما عصره فما هدأت اضطراباته . وقد عرفت حلب الحمدانيين والفاطميين والروم ، وداست جيوشُهم أرضها ، غازية مغزوة . ما ذاقت حلب وما حواليها خلال ذلك طمأنينة ولا دعة .

وإليك تلك الكلمة ننقلها عن ابن العديم مثلاً مما كان . قال : « سنة ثمان عشرة وأربعمائة . فيها وصل الأمير أسد الدولة صالح بن مرداس الى حلب . وأمر باعتقال مشايخ المعرّة وأماثلها . فاعتُقل سبعون رجلاً في محبس الحصن سبعين يوماً . وذلك بعد عيد الفطر بأيام . وكان أسد الدولة غير مؤثر لذلك . وإنما غلب تادرس على رأيه ، وكان يوهمه أنه يقيم عليهم الهيبة . ولقد بلغنا أنه خاطبه في ذلك ، فقال له : أقتُل المهذب وأبا المجد — يعني أخا أبي العلاء — بسبب ماخور ؟ ما أفعل !

وقد بلغني أنه دُعي لهم في آمد وميافارقين ، وقطع عليهم ألف دينار ، واستدعى

الشيخ أبا العلاء . فلما حصل عنده في المجلس ، قال له الشيخ أبو العلاء : مولانا السيد الأجل أسد الدولة كالسيف القاطع ... فقال صالح : قد وهبتهم لك أيها الشيخ . ثمّ قال أبو العلاء بعد ذلك :

تغيبت في منزلي برهة ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر إلاّ الأقل وحُمّ لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً الى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد

*

وإذا ذكرنا أبا العلاء الشاعر ذكرنا له ديوانيه : سقط الزند ، واللزوم ، كان أولهما لشبابه ، والثاني لما بعد ذلك .

وكما كان أولهما أيضاً وصلة بينه وبين الناس ، مدح فيه ورثى وشكر . كان ثانيهما لشيء أسمى من ذلك وأجل . فجعله وصلته الى نفسه ، فتحدث اليها وتحدثت اليه . وهكذا جاءت اللزوميات غير السقط .

وقد تحدث الينا أبو العلاء في مقدمة السقط فذكر أنه لم يكن من طلاب الرفد والصلة.

وفي الحق إنه لم يمدح فيه الاّ القليل من الناس صدْرَ عمره ، قبل أن يعتزلهم الى محبسه ، كما أنه لم يمدحهم لعطاء ولا نائل ، وما قبل هدية ولا صلة من شريف ولا وضيع.

ويكاد يصف لك أبو العلاء نفسه في هذه الكلمات : « وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجال . ثم يقول : « ويحسن الله جزاء البغداديين ، فقد وصفوني بما لا أستحق ، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا عليّ أموالهم عرض الجد ، فصادفوني غير جذل بالصفات ، ولا هش الى معروف الأقوام » .

وشيء آخر ، فان الوزير الفلاحي كتب الى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك ، متولي حلب وأعمالها ، يحمل أبي العلاء الى مصر ، ليبني له دار علم . وسمح بخراج معرة النعمان له في حياته وبعده .

ونهض عزيز الدولة الى معرة النعمان واجتمع بأبي العلاء ، وقرأ عليه كتاب الوزير.

فاستمهله أبو العلاء . ثم كتب الى الوزير يستعفيه من ذلك . فأعفاه . وكان مما قاله :

كأنما غانةٌ لي من غِنىً فعدٌ عن معدن أسوان
سرتُ برغمي عن زمان الصبا يعجلني وقتي وأكوابي

وأخيراً فهذا قوله :

لا أطلب السيب من الناس بل أطلبه من خالق السَّيْبِ
ويشهد الأول أني امرؤ لي جَسد يفرق في عيبي
تضرب أضراسي وظني بها التعطيس بالكَدس في جيبي
ويلي مما أنا فيه وجل الأمر عن ويح وعن ويب

ونحسبنا في غنى عن أن نضع تحت بصرك مثلاً من شعره ، مما قال هنا أو هناك . فقد عاش أبو العلاء لغير ما عاش جل الشعراء له ، وما جرى لما جروا له . وفرغ لنفسه ثم لرأيه في الحياة يصوغه شعراً .

فقد حمل أبو العلاء نفساً كبيرة ، ما الى ذلك شك . وصان قوله عن أن يُشترى ولسانه عن أن يؤجره ، وما الى ذلك شك أيضاً .

وقد نشدنا مثل ذلك فيمن حدثناك عنهم ، فلم نجدهم أبلوا بلاءه ، ولا عدوا عَدْوه .

وإذاً فقد أخذ أبو العلاء نفسه بما يأخذ به أصحاب الرسالات ، وسلك مسلكهم ، ولكن أي رسالة حَمل وأدّى ؟

ذلك ما نحب أن نحدثك فيه .

نحن إذ ننشد الشاعر ذا رسالة ، لا نلزمه وجهة ولا قصداً . ولكنا نلزمه البعد عما يحياله الطامعون في جاهٍ ونشب ، ثم نلزمه ألاَّ يسلك بنفسه مسالك الزلل فيعيش مأجوراً ، ونلزمه أن يقول قوله للحق الذي يدين به لا لما يريده الناس عليه ، ونلزمه أن يرى المتربة في ظل إيمانه بنفسه خيراً من الغنى في ظل إيمانه بالناس .

ذلك أول ما نراه مع الشاعر ذي الرسالة ، أما بعد هذا فقد يرى هو أن من الحق عليه أن يؤدي رسالته في هذا السبيل ونراها نحن في غيره . ذلك شيء نؤمن أن الخلاف فيه بيننا وبين الناس واقع .

ولنلتفت عن هذا ، حتى لا يطول بنا الأمر ، الى أبي العلاء لنرى أي الرسالتين كانت أولى به . أتلك التي حملها ، أم أخرى كانت له فصدف عنها ؟

أمّا التي حمل فهي آراؤه وما دعا إليه من رحمة بالحيوان ، وزُهد في الحياة ، وشيء آخر لم يُعرف عنه في وضوح . وأما التي لم يحمل فتهيئة النفوس ، وإعداد الخواطر لنهضة اجتماعية يخرج منها قومه الى عزّة وأمن .

ولو سلمنا له بالأولى ، وقلنا ذلك استعداد النفس وتلك طبيعتها ، فلن ننسى له أنه فقَد شيئاً من صفات « الشاعر ذي الرسالة » يكاد يكون خطيراً .

أتعرف لِمَ اضطرب الناس في أمره فلم يعرفوا رأيه في وضوح ، وفات الناس أن يلقنوا عنه تعاليم ومبادىء ؟ ذلك لأن أبا العلاء لم يكن شجاعاً جريئاً . ولو أنه رزق هذه لكشف للناس عما يدين ، ولمضى وقد بَيّن . ولكنه رضي لنفسه هذا ، أو أن الخوف حبس لسانه عن أن يجري بما يدين . فقضى وما أتمّ ما حمل .

ولو رأينا أنه كان للثانية أولى . فأبو العلاء لم يحمل ما يجب له . وأنه أساء إلى من حوله إذ شغلهم عن الأهبة بما يكوّن الشعوب ويبني الأمم ، بالحديث عن أشياء لم تُكشف فيعرف الرأي فيها ، ولم تُترك فيرلح الناس إلى غيره مما عنّاهم وأثقلهم ، وكانوا في حاجة معه إلى مُبصّر يُبصّر وحادٍ من الشعراء يجمع الناس وراءه الى حيث الحرية والخلاص .

خاتمة

الأمور إلى ثلاث : رأس ولسان ويد .

فمع الرأس التدبير . ولا نجاح لتدبير إلاّ إذا رُزق لساناً مُفصحاً ، يمكّن له في الأذهان ، ويُعبِّد له السبل إلى القلوب ، وعلى قدر ما تؤتى الألسنة من بيان تكون إصاخة المصيخين ، واستجابة المستجيبين .

وباليد تستحيل الفكرة حقيقة، في حضارات مشيدة ، ونظم مُقامة ، وسياسات تكفل بسطةً وسعة وأمناً ورفاهية .

فاذا سلمت هذه الثلاثة سلم كل شيء ، ومضت الأمور إلى خير .

وإذا اعتلّ الرأس وسلم اللسان بقي البُرء مرجوًّا والسلامة مأمولة . فالألسنة كما هي للأيدي محركة ، فهي للرأس مقومة ، بما تدل على مساءة في الرأي ، وتكشف عن عور في التدبير .

في سلامة اللسان السلامات كلها ، وفي علته العطب لجميعها . فهو ان اعتلّ مفسدة للتدبير يسيء الحديث عنه، فيعرفه الناس في غير صورته فلا يرضونه ، ويميل بالأيدي فيصرفها عن نصرته ويجمعها على حربه .

وإنما أردت باللسان القول في لونيه : شعره ونثره . فما أحقنا بتنشئة الألسنة تنشئة سليمة تضمن في كل ما يصدر عنها الخير والسلامة .

آن أن نعرف للقول شأنه ، وأن نستقصي السبل ونتحرّى المناحي في أن نهيء له ما نضمن به ما نريد .

نحن لا زلنا نعرف الأمور بمظاهرها العارضة . فنعرف المعلم في حسن تلقينه ،

والطبيب في يده الآسية ، وجرعته الشافية . ونعرف المهندس فيما يشيد فيجيد ، ونعرف الصانع فيما يبدع ، والزارع فيما ينتج . ونظن أن عند هذا تنتهي رسالاتهم .

وما درينا أن على المعلم أن يقتطع للتوجيه من وقته وجهده مثل ما يخص به التلقين ، وأن على الطبيب إحياء الروح الصحية في النفوس ودعوة المسئولين في جهد لا يفتر الى إحقاق دعوته . وعلى المهندس أن يرى لأمته ما تظهر به ناهضة حية . وعلى الصانع والزارع أن يرى لهما من نتاج اليد ما يدعم ركناً ويسد نقصاً .

فأنت ترى أن الحياة ليست الى تلك الحركة الآلية تعتمد ، بل هناك هذا النوع الذي كشفنا عنه وسميناه رسالات .

أما عن رسالة الشاعر فقدقدمت في هذا الكتيب جمعاً من الشعراء ، عرضت لهم عرضاً سريعاً ، أردت فيه أن أقول رأياً في ضوء فكرتي عن الشعر . أما الفكرة فلا أظنني بمخالف عليها . وأما الرأي فهو ما رأيت وقد يرى غيري غيره . وأنا فيما أرى ويرى الناس متفقون على الفكرة في انه لكل شاعر رسالة ، مختلفون إن اختلفنا على الرسالة ولونها .

فاذا صحّ هذا فنحن الى عودة بنظرة الى دراسة الأدب جديرون ، فالأدب اليوم يدرس نصوصاً ودراسات .

وأحب أن يُحمَّل درس النصوص جميع ما يتصل بالأسلوب والمعنى ، من قوة وضعف ، وإجادة وإسفاف . حتى اذا ما استقامت نصوص الشاعر أو الكاتب في الأذهان ووضحت للفكر . جاءت الدراسة فعرضت لبيئة الشاعر عرضاً مفصلاً . فكشفت عن نظام العصر . واتجاه الرأي فيه ، وقالت لنا عن مهام المصلحين وما عليهم . وعرّفتنا أثر الشاعر ونصيبه ومشاركته في ذلك .

نعم ، علينا أن نفعل ذلك لنخلق في الأدب جيلاً جديداً لا تقنع منه بالقول المعسول واللفظ الطيب ، بل نطلب منه بعد هذا الرسالة التي بينت شيئاً عنها . والرسالة لا تقوم إلاّ على شجاعة وثبات ودين . فنحن مطالبون هذا الجيل الذي نريد من الأدباء أن يكون هذا وغيره مما يتصل به جزءاً من رسالتهم

وأكاد أقول آسياً إن الأدب العربي بعُد كثيراً عن هذا الغرض والتفت الى التنميق

جهده . وقد ذكرت سبب ذلك صدر هذا الكتيب . وقلت إن النقد هو الذي خلق الأدباء هذا الخلق .

ألا فليكن لنا نهج في النقد جديد لتظفر بلون من الأدب جديد نمكن فيه للأدب بأن يتبوأ مكانته ويحلّ محله .

وعند هذا أقف بعد اعتذاري عن أخطاء في الطبع ، وإجمال كنت أرجوه تفصيلاً ولكني اذا ذكرت أن الكُتَيِّب أكاد أكون أمليته على الطابع ، وأنني لم أملك فسحة للإعداد وأخرى للمراجعة ، رجوت الى القارئ أن يقبل مني العذر ويسأل له ولي التوفيق والسلامة .

الفهرست

٣ تقدمة

٥ موازين الشعر

١٠ امرؤ القيس

٢٠ النابغة الذبياني

٣٢ زهير بن أبي سلمى

٤١ عنترة بن شداد

٥١ حسان بن ثابت

٥٧ المتنابزون : الأخطل ، الفرزدق ، جرير

٧٥ أبو تمام والبحتري

٨٣ المتنبي

٧٤ أبو العلاء المعري

٩٨ خاتمة

الابيارى ،ابراهيم
رسالة الشاعر
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031744